

سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر

فرانز فانون

بقلم: دافيد كوت
ترجمة: عدنان كيالي

15

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



فرانز فانون



سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر

فرانز فانون

بقلم

دافيد كوت

ترجمة

عدنان كيالي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

الطبعة الاولى

كانون الثاني ١٩٧١

١ ـ بشرة سوداء وأقنعة بيضاء

هكذا يبدأ فرانز فانون حديثه :

« انني اتحدث عن ملايين الناس الذين شُرِّبوا بدهاء عناصر الخوف ومراكبات النقص والذعر وروح العبودية واليأس والذل » .

وهو يستعير هذه الكلمات من ايميه سيزير الشاعر والسياسي فيقول :

سيزير ، مثل فانون ، « مواطن » فرنسي
سيزير ، مثل فانون ، من مواليد المارتينيك
سيزير ، مثل فانون ، أسود .

« انني اتحدث عن ملايين الناس ... » والواقع ان فانون

اصبح في اواخر حياته القصيرة يعبر عن مشاعر ملايين الناس . فكان « ينطق » باسم المواطنين السود في جزر الانتيل وباسم سكان الجزائر وباسم افريقيـــا السوداء بنفس المنطــق القوي الصلب وحب العدالة اللذين كان جيفارا يدافع بهما عن الفلاحين والكادحين في امريكا اللاتينية وان انطوى ذلـك على شيء من المفارقة والمأساوية . فأما المفارقة فهي نابعة من ان عقائـــد الرجلين هي اليوم معروفة لدى الاوروبيين والامريكيين اكثر مما هي معروفة لدى المعذبين في الارض ممن تبنيا قضيتهم الثورية واما المأساوية فنابعة من ان الفقر والاستغلال والظلم لا تزال هي حقائق الحياة الاساسية لدى الاكثرية الساحقة من سكان العالم . ولا شك انه من الممكن القول بان المبالغة قد جعلت من كل من الرجلين اسطورة بل نبياً ومثلاً أعلى في التضحية والتفاني في سبيل الانسانية . ولكن عــالم اليوم الذي لم يبق فيه شيء في مكانه الاصلي والذي تسوده الافكار المبنية على العدل والمساواة والاحترام المتبادل ، لم يعد يتسع لغيبية الانبياء وغموضهم . ومن هنا نجد ان الرأسمالية هي التي «خلقت» كارل ماركس وان الفقر المدقع في صقلية هو الذي خلق غاريبالدي وان الاوتوقراطية الروسية هي التي خلقت لينين كما خلق الاستعمار البريطاني غاندي.

أما « فانون » فقد خلقه الرجل الأبيض .

على ان هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة بالنسبة لفانون . ذلك انه من الممكن تحـــديد الفئة أو الطبقة التي ينتسب اليها فانون من خلال ظروفه ومحيطه ولكن هذا التحديد لا يمكن ان ينسحب على افكاره وحياته والانسان الذي حول نفسه اليـه . فثمة دائماً مجال للاختيار . ولقد كان الباب مفتوحاً امام فانون على مصراعيه ليلتحق بصفوف النخبة السوداء المنتسبة اجتماعياً الى الطبقة الوسطى وهو الاتجاه الذي كان نظام الاستعمار الفرنسي يتبناه ويغذيه على نحو مدروس . ولكن بعض السجايا والقوى الشخصية المميزة للرجل دفعت به بعيـــداً عن الافادة من مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة . ذلك انه غدا متمرداً ثم ثورياً .

هل هو إذن جيفارا افريقيا السوداء ؟ اغلب الظن ان تماثل الرجلين ليس دقيقاً . فهوية جيفارا ومكانته مستمدتان في الدرجة الأولى من جمعه بين شخصية المناضل وشخصية العقائدي النظري ثم شخصية عضو العصابات القيـادي ناهيك بشخصية الكاتب ايضاً . أما فانون فصحيح انه أصبح رجلاً مناضلاً في اثناء ثورة

التحرير الجزائرية ومدافعاً عن قضية تحرير افريقيا الا ان ما انجزه في هذا المضمار لم يكن عملا بارزاً . فلقد استند في نفوذه المتصاعد الى كتاباته التي لم تقدر لها سعة الانتشار إلا بعد وفاته عام ١٩٦١ . والواقع ان اقرب قرين لجيفارا في افريقيا السوداء هو املكار غبرال المهندس الزراعي المولّد – احد الابوين ابيض والاخر اسود–والثوري العقائدي الذي قاد حرب العصابات الناجحة ضد حكومة الحكم البرتغالي في غينيا وجزر الرأس الاخضر . ومن المؤكد ان فانون هو اشبه ما يكون بسنغور وسيكوتوري ونكروما ولكن مسرح نشاط هؤلاء الزعماء الثلاثة الذين جمعوا ما بين الطاقات السياسية للعملية والحماس العقائدي كان في ساحات المدن العامرة لا في الغابات والجبال النائية . واذا كان ذلك لا ينتقص من قيمة الدور الذي ادوه في الحركات الاستقلالية الوطنية فانه لا ينفي ان مرور الزمن وممارسة السلطة قد نالا إلى حد ما من مثاليتهم العقائدية الاصيلة وهو أمر يصدق على سيزير أيضاً . ومن الثابت بالطبع ان جيفارا لم يكن ممن تستهويهم المناصب فهل كان فانون في ذلك قريناً له ؟ ليس في وسعنا ان نعرف ذلك . كل ما نعرفه انه أصبح في اواخر حياته القصيرة ثورياً مثالياً متصلباً . فامثاله من

الرجال لا يعرفون الراحة .

ولقد كانت تتملك فانون طيلة حياته مرارة التمييز العنصري. وكان في مطلع شبابه قد توهم ان في وسعه ان يتغلب على حاجز اللون مستنداً في الى ثقافته وطاقاته الشخصية . وهكذا تطوع في اثناء الحرب بالخدمــــة في الجيش الفرنسي واصبح يعيش في اوروبا منذ عام ١٩٤٤ . ودرس بعد ذلك الطب وعلم النفس في جامعة ليون حيث بــدأ يدرك ويحس ان الزنجي بصرف النظر عن مستواه العلمي والثقــافي هو في نظر الفرنسي زنجي قبل أي شيء اخر ومن ثم فهو ذو مرتبة متدنية « عندما اتحدث إلى من يحبونني يقولون انهم يحبونني على الرغم من لوني وحينما اتحدث الى من يكرهونني يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لوني . وفي كلتــا الحالتين اجدني حبيس الحلقة اللعينة اياها »[١] . وفي الجامعة قال له الاستاذ الممتحن بلهجة مشبعة بالاستهانة : ومن أين أنت ؟ آه من المارتنيك .. (وفي الوقت نفسه تقريباً – يا للمصادفة –وعلى بعد آلاف الاميال منه حدث ان كان باتريس لومومبا الذي ولد معه في نفس العام –١٩٢٥ –وتوفي في نفس العام أيضاً –١٩٦١– قد اصطدم سهواً بامرأة بيضاء في احدى شوارع ليوبولد فيل فالتفتت تنتهره حانقــة « الا تستطيــع ان تنتبه ايها القذر ») . ويروى فانون ان نظام الامتحان في جامعة ليون يقضي بان

يدفع الطالب يده داخـــل سلة ليسحب منها احدى اوراق الاسئلة معتمداً في ذلك على حظه ولكن الاستاذ ترفــق بفانون قائلاً « ما هو الموضوع الذي تريدني ان اسألك فيه؟ » إلا ان فانون سارع الى دفع يده بأنفة في السلة حسب العادة المتبعة .

وعلى الرغم من الاذلال الذي تعرض له فانون فقـــد ظفر بأعلى المستويات العلمية واقترن بفتاة فرنسية وعين رئيساً لدائرة علم النفس في مستشفى بليدا – جوينفيل بالجزائر . وكان ذلك عام ١٩٥٣. ولكن بشرته ظلت مع ذلك سوداء..وفي السنوات القليلة التالية عندما كان في ايطاليا كانت زوجته هي التي تحجز لهما الغرف اللازمة في الفنادق . ولقد كان من المحتمل ان تكون مشاعره اقل مرارة لو اقتصر هـــذا التمييز على اوروبا البيضاء وحدها ولكنه واجهه حتى في « العالم الثالث » الذي يفترض ان الكفاح ضد الاستعمار قد وحد بين شعوبه . فقـــد كتبت سيمون دي بوفوار تقول « وفي تونس لم تدعه العيون التي كانت تتلفت لمشاهدته ينسى لون بشرته » . ومن الواضـــح انه متى طرح موضوع العنصريـــة ومكافحتها للنقــاش يصبح من المتعذر سحبه . ففي غينيا لم يكن اصدقاء فانون الافريقيون يقبلون التحدث معه في أمور هامة بحضور زوجته البيضاء .

ومن الواضح كذلك ان وجود الرجل الابيض في مستعمرة يحكمها البيض سواء كانت فرنسية أو هولندية أو برتغالية يقترن على الدوام بالسلطة والمكانة والثروة والتفوق. وليس هذا الاقتران رمزياً بل هو يضرب بجذور عميقة داخل البنية الاجتماعية . تلك كانت الحالة في جزر المارتنيك مسقط رأس فانون . وهكذا اصبحت ذروة طموح المواطن الاصلي هنا هي ان يكتسب اكبر قدر من الفرنسة سواء كان ذلك من حيث اللغة او التعليم او الثقافة أو حتى الدين . ومعروف ان مواطني هذه الجزر يتحدرون من صلب العبيد السود الذين نقلوا من افريقيا للعمل في مزارع السكر والقهوة وهو ما كان هؤلاء المواطنون يتمنون ان ينسوه وان يعتقدوا ان سياسة فرنسا الرسمية مبنية على امتصاصهم دون الالتفات إلى لون بشرتهم .

ويصف فانون ببراعة كيف يتعمد الفرنسيون تشريب المواطنين السود مفاهيم تجعل منهم رعايا سوداً باقنعة بيض سواء فعلوا ذلك بوعي او بغير وعي لما يفعلون . فالفرنسيون يوحون للسود بان يرضوا بالمهانة التي يفرضها عليهم لونهم الأسود. ففي جزر الانتيل مثلاً يطالع الطلاب السود منذ نعومة اظفارهم قصصاً تجعل من الرجل الاسود رمزاً للقوى الشريرة .

ولا بأس بأن يذهب الطلاب السود الى صالات السينما ليسخروا من رجال قبائل الزولو هاتفين لطرزان تأييداً له ضد الاشرار السود . ولكن الأمر يصبح شديد الوطأة حين يجد الزنجي نفسه وسط جمع من البيض في احدى صالات السينما بفرنسا ليشاهد منظراً كهذا. ذلك انه سيحس عندئذ ، سواء احب ذلك او لم يحبه ، انه مماثل لرجال قبائل الزولو وان اللعنة التى يصبها المشاهدون على اولئك الرجال تنصب فى الواقع عليه بالذات.

من هنا كان جل ما يطمح اليه مواطنو جزر الانتيل هو ان يصبحوا بيضاً وفرنسيين.ومن ثم كان افراد الطبقة الوسطى منهم لا يتحدثون بلغة الكريول إلا الى خدمهم . أما فيما عدا ذلك فهم يتحدثون بالفرنسية بل ان الطبقة البرجوازية فى جزر الهند الغربية تعامل الزنوج القادمين من داهومي او السنغال مثلاً بالازدراء والامتهان بدلاً من التفاخر بان اجدادها انما قدموا من تلك الاصقاع الافريقية . وكان مما يعتز به سكان جزر الهند الغربية انه في الوقت الذي تشكل من الافريقيين فرق عسكرية منفصلة تابعة للجيش الفرنسي فانهم هم انفسهم يلتحقون بفرق الجيش الاوروبية مباشرة . وكان الهندي الغربي المنتسب الى الطبقة الوسطى يفعل كل ما في وسعه حين يصل الى فرنسا

لكي ينفي هويته الزنجية فتراه يقول متباهيـــاً ان الزنوج افريقيون اما هو فهو انسان مهذب تشرب الحضارة الاوروبية وان كان ملوناً. وكان يوهم نفسه بأن لون البشرة لا اهمية له واضعاً على وجهه قناعاً ابيض ! أما العناصر البيضاء فقـــد كانت من جهتها تتمسك بعناد بالصورة التي تحملها للزنجي البـدائي الذي يبدو لها اشبه ما يكون بالدمية المضحكة وهو يرطن بالفرنسية حتى حين تجتمع بانسان مثل فانون يجيد الفرنسية اجادة تامة . فهي لا تستطيـع إلا أن تستشف العنصر الزنجي من خـــلال لونه الأسود .

تلك هي الخلفية النفسانية الاجتماعية التي تنعكس ، كما يوضح فانون ، على صورة عصاب جنسي اليم . فالرجل الهندي الغربي الابيض يسارع ، لدى وصوله إلى مرفأ الهافر ، إلى أول بيت للدعارة يلقاه في طريقــه ليتذوق لاول مرة في حياته طعم جسم المرأة البيضاء « عندمـــا تداعب يداي تلك النهود البيضاء احس بانها تمسكان بالمدنيـة والكرامة البيضاء وتجعلانها ملك يدي »[٢] . ومـــع ان مالكولم أكس يقول في مذكراته وسيرة حياته ان الاعتقاد السائد بان الرغبـة الأولى لدى الزنجي هى ان يمتلك امرأة بيضاء انما هو اسطورة خلقها الرجل الأبيض إلا أن حواريّه

الدريدج كليفر يعترف بتلهفه السابق على المرأة البيضاء وانصراف الاكثرية الساحقة من زملائه السجناء السود عن النساء السوداوات. لقد كانت الايدي المتلهفة التي اشار اليها فانون تستقبل بترحيب مقابـل اجر ولكن الشعور بالخجل والاثم اللذين كان يحس بهما كليفر قاده فى النهاية الى عملية اغتصاب متعمد مقصود . وكان كليفر ، شأنه شأن فانون من قبله ، قد قرأ رواية رتشارد رايت « الابن الوطني المحلي » . ثم اقدم على القيام بدور الحيوان البدائي الأسود حين اغتصب امرأة سوداء .

وهنا يكمن تطور بارز هام فالمواطن الفرنسي الاسود المثقف نسبياً والذي كانت الحكومة الفرنسية تمنحه بعض الحقوق وكان بدوره تواقاً الى الكرامة والاحترام والمساواة ، كان يعتبر عملاً كهذا شيئاً لا يتصوره العقل . ولكن بعد مرور ما يقرب من عشرة اعوام على ذلك بـدأ الشاب الأسود المثقف فى الولايات المتحدة يحس بيأس تام من تحقق تلك التطلعات والمثل ويعتصم من ثم بموقف مشبع بالتحـدي يقوم على نفس المرتكزات التي طالما فرضها عليه الرجل الابيض فرضاً . ففانون يستذكر انه في غضون ثلاثة أو أربعة اعوام من الزمن استفتى بحـكم مهنته ، كطبيب واخصائي نفسي ،ما يقرب من ٥٠٠ رجل ابيض ينتمون

الى مختلف الجنسيات الاوروبية فكان رد فعل أكثر من ٦٠ ٪ من هؤلاء بالنسبة « للزنجي » ان هذه الكلمة تقترن لديهم بصور الملاكمة والتركيب البيولوجي الخاص والفحولة الجنسية والتفوق الرياضي والوحشية والخطيئة . ولا ينسى فانون ان يلاحظ انه لو لم يكن هو شخصياً اسود لكانت هـذه النسبة أعلى من ذلك بكثير . فكما ان المال والخداع قد اصبحا رمزاً لليهود كذلك اصبحت الفحولة الجنسية للزنوج . ولكن فانون يصر ، بوصفه عالماً فرنسياً ، على ان الفحولة الجنسية الفائقة لدى الزنوج هي اسطورة لا اساس لها سواء قيست بمقياس التشريح او بمقيـاس الانجاز العملي . وكل ما في الأمر ان الزنجي الامريكي الذي يجد نفسه على الدوام عاجزاً عن تحقيـق ذكورته من الزاويتين الاقتصادية والاجتماعية يضطر في النهاية الى تبني ما يعتبره تعويضاً عن هذا العجز فيرتدي رداء الانسان المتفوق على الانسان الابيض رياضياً وجنسياً [٣] . وفي غضون ذلك يواصل الزنجي الفرنسي أو البريطاني السعي لاكتساب صفة الاحترام والاستقامة لنفسه أو يكتسب تعويضاً عن ذلك سلطة سياسية واحتراماً ذاتيـاً يؤمنه له زوال الاستعمار عن افريقيا .

على ان التوتر الجنسي لا يقتصر على الزنجي الذكر بل يمتد

ايضاً الى الانثى الزنجية التي تقضي مطلع شبابهـا وهي تحـلم بالوصول الى مـا يسميه كليفر « العريس النفساني الوسيط » . ويكرس فانون صفحات طويلة من كتبـه لبحث نفسية الفتاة الهندية الغربية التي تبحث عن زوج ابيض أو بالاحرى عن زوج يتسم بنعمة التمتع ببشرة يكون لونهـا اقرب الى البيـاض . فالهاجس الاول وربما الوحيد للفتاة الزنجية في جزر المارتنيك هو ان تتحول الى فتاة بيضاء . والفتاة المولـّدة ينبغي ان تعض بالنواجذ على ما بلغته من تقدم وتتجنب بأي ثمن ان تنزلق من جديد الى فئة ذوي السواد الكامل. وفي امريكا ايضاً تشربت الفتيات السودوات اجيالاً طويلة روح الشعور بالدمامة والنقص وكن بالتـالي يمضين الساعات الطويلة في استخدام الزيوت والدهونات المبيضة والأمشاط الحارة لتمليس شعورهن. ولكن كاتلين كليفر تظهر في فلم اغنيس فاردا القصير المسمى « بلاك بانتر » ـ الفهـد الاسود ـ وهي تتوج رأسها بشعر كث ثقيـل وتقول « انه جميل » !

فهل يعني ذلك ان مواطن المارتنيك قد أخذ في مرحلة مـا يتسامى بجهوده المذلة الموجهة نحو ما اسماه فانون « بالتبييض »؟ ان توجيه ضربة قوية الى التطلعات غير الواقعية لجماعة أو لفرد

ما يمكن ان تسفر عن تفكيك سريع للقناع الابيض . ولقد قام باتريس لومومبا رئيس وزراءالكونغو المتطرف قبل بضعة اعوام فقط من تسلمه زمام الحكم باخضاع نفسه لعملية امتحان مذلة يتعرض خلالها الزنجي المثقف لدراسة كل وجه من وجوه حياته للتأكد مما اذا كان قد بلغ بالفعل المستويات الاوروبية للحضارة . وتعرض لومومبا بعد ذلك للسجن . وعندما استعاد حريته كان قلبه قد اصبح مشبعاً بسواد الغضب ولكنه كان كذلك قلباً اسود بالفعل . اما فيما يتعلق بالانتيل فقد كانت شهادة فانون غامضة مبهمة ان لم تكن مناقضة لما تقدمها . ذلك ان موقف « الاقنعة البيضاء » الذي يصفه في كتابه الاول الصادر عام ١٩٥٢ والذي يقوم على اساس السعي للانصهار المذل انما قصد به اعطاء صورة صادقة عن الوضع كما كان في ذلك الحين. ولكنه يعود في مقال نشره عام ١٩٥٥ [٤] الى النظر بمنظار تاريخي فيقول ان الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة نقطة تحول في النفسية الجماعية لمواطن جزر الهند الغربية الفرنسية .

ويقول فانون ان عدد الاوروبيين المقيمين بصورة دائمة في المارتنيك لم يتجاوز قبل عام ١٩٣٩ ٢٠٠٠ نسمة كانوا يشغلون مراكز محددة ويتمتعون بمركز محدد في المجتمع ولكن بنشوب

الحرب وسقوط فرنسا وصـــل الى البلاد نحو ١٠٠٠٠ لاجيء اوروبي معظمهم من البحارة . وعاش هؤلاء اللاجئون اربعـــة اعوام في المنفى لا يفعلون شيئاً يذكر منطوين على انفسهم بيأس مطبق مما جعلهم بطبيعة ظروفهم عنصريي النزعة . ومـــا كان للمواطنين المحليين الاصليين إلا أن يدافعوا عن انفسهم . فعندما قال ايميه سيزير من قبل « مـــا اجمل ان يكون الانسان اسود » اعتبر كلامه ذاك فضيحة شائنة واحدث هزة في الضمير الجماعي لكلتا الفئتين من المواطنين المحليين والبيض الذين رأوا فيه رجلا فقد عقله . ولكن تعاليمه بدأت الان تؤتى اكلها فقد انبثقت في صفوف السود ظاهرة جديدة ملؤهـــا احترام السواد والبشرة السوداء والفن الأسود والبدائية السوداء واقترن ذلك كله بتطرف سياسي جديد . وهكذا كان من بـــين نواب المارتنيك الثلاثة الذين تم انتخابهم للبرلمان الفرنسي بعد التحرير نائبان شيوعيان احدهما سيزير نفسه . ويصف فانون هذا التحول فيقول ان سكان جزر الهنـــد الغربية أصبحوا يتوقون الى السفر الى السنغال يحدوهم على ذلك امل مفعم بالرغبـــة في لمس الصدور السوداء لافريقيا الأم . بيد انهم حين وصلوا الى دكار أصيبوا بخيبة أمل شديدة إذ وجدوا ان الادوار قد انعكست وان الناس هناك لا

يعتبرونهم زنوجاً اقحاحاً. ولم يكن الرفض الاسود لهم شأنه شأن سابقه الرفض الابيض الا ليزيدهم الحاحاً . أمـــا في هذه المرة فقد كانوا يرتدون « اقنعة سوداء ».

على اننا اذا نظرنا الى الأمر من زاوية تاريخية واقعية الفينا ان الدقة تعوزه في الحالتين . ففي رأيي ان تناقض الحالتين يمكن فهمه من خلال صفتين يتصف بهما فانون، الاولى منهجيته العقلانية التجريدية والثانية منظاره المعياري المُبرمج برمجة دقيقة .

فلقد كان فرنسيا يكتب في ضوء تقليد فلسفي فرنسي معين في حين ان الكتّـاب الهنود الغربيين البريطانيين الذين كتبوا في اعقاب الحرب اتجهوا بطبيعتهم نحو كتابة الرواية كوسيلة للتعبير عن خصائص المجابهة العنصرية بمرونة وغموض . بيد ان ثقافـة فانون كانت تجريدية تلقينية مشبعة احياناً بالمبالغات البيانية . وهنالك اليوم عبارة عامية يتداولها النـــاس فحواها « صفها كما هي» ولكن الأمر بالنسبة لفانون مختلف فقد نشأ في ظل وجودية سارتر وميرلو بونتي وكامو ومن ثم فهو ينفذ على الدوام الى قلب الأمور ولبها متجاوزاً التفاصيل الطاغية على السطح ليقول ، باصرار ، هـــذه هي الحقيقة . اما كتاب الرواية من الهنـود الغربيين الذين يكتبون باللغة الانكليزية فشأنهم مختلف فنحن

نواجه في احدى روايات في . ا س . نايبول بطل الرواية المسمى مستر بسواس فلا نعرف إلا بصورة تدريجيـــة لونه ومهنته ومركزه الاجتماعي ومواقفه . اما فانون فانه يعالج من خلال انقسامات فئوية جوهرية شؤون « الرجل الاسود » و « الرجل الابيض » و «المستعمِر» و «المستعمَر» و «المواطن المحلي الاصلي» و « العنصري » و « الفـــلاح » و « البرجوازي » . وتتحرك افكار فانون بسرعـــة المستعمِر ونفاد صبر منطلقاً من الانسان الفرد متغلغلاً في فئات هيجيلية « الفاعل والمفعول » ، « النفس والغير» وغير ذلك من التقسيمات التي كثيراً ما تخلق ضوءاً جدلياً مجيداً ولكنها كثيراً ما تضيء ايضاً ببرق شديد ذي وضوح مزيف .

واذن ، فان فانون ينزلق احيانــاً نحو المبالغة فكما بالغ في «البشرة السوداء والاقنعة البيضاء» في صفوف الهنود الغربيين فقد بالغ كذلك في عام ١٩٥٥ في وصف سيكولوجيا الاقنعة السوداء العكسية . ومرد ذلك الى ان فانون يعتبر نفسه كاتباً ارشادياً وهو كذلك بالفعل ومن ثم نجده منصرفاً الى بث فكرة خاصة معينة . ولقد وصف سارتر الأدب الملتزم بأنه شكل من اشكال العمل ، العمل من خلال كشف الحقائق . ومن الواضح ان فانون

يتخذ دائماً من الكلمة المكتوبة اداة للتعبير . ففي كتابه الاول كان يحاول ان يحطم كلاً من الحاجز المبني حول بياض الرجل الابيض والحاجز المبني حول سواد الرجل الاسود غير انه في عام ١٩٥٥ وقد شهد اندلاع نيران الثورة الجزائرية وأخذ يرى بشكل تام متزايد الحركات الاستقلالية في المستعمرات السوداء أصبح همه الدعوة الى النضال السياسي . ومن ثم فقد انصرف الى التنقيب عن الجذور التاريخية لحركة سياسية سوداء آخذة في التكون والظهور . ويقوم اسلوب فانون على صهر الاسلوبين الوصفي والعباري معاً ووضع « كما هي » في خدمة « كما ينبغي ان تكون » .

وفي عام ١٩٥٢ كان لا يزال يكرس نشاطه لمبدأ الاتحاد والمساواة بين الرجل الأبيض والرجل الاسود . ولكن الرجل الملون يتخلى عن احلامه في الاتحاد عندما يتعلم أمرين الاول ان الرجل الابيض يعني بالاتحاد « ان تصبح مثلي » والثاني ان الرجل الابيض مقتنع بان الرجل الاسود يستحيل ان يصبح مثله كما يستحيل ان يصبح على قدر مماثل له من المستوى . وعندما يستوعب الرجل الملون في النهاية النقطة الثانية يبدأ في التشكيك بالنقطة الاولى ثم يقرر جيمس بلدوين « إنه ليس ثمة سبب

يدعوك الى ان تحاول ان تصبح كالرجل الابيض كما انه ليس ثمة أساس لافتراضهم الوقح بأن عليهم اولاً ان يقبلوك» [٥]. ولكن فانون لم يكن قد وصل بعد في كتابه الاول الى هذا المدى الذي هو في الوقت نفسه نقطة تحول . لقد اعتبر فانون ميل الزنجي المستعمَر نحو العزلة والانطواء على النفس - طبقاً لصيغة فرويد - امراً غير عملي . فالزنجي يريد الظفر بقبول الانسان الابيض له . وقال فانون معلقاً على ذلك « مهما بلغ تقبل هذه النتيجة من الايلام لي فانني مضطر الى ذلك . فبالنسبة للرجل الاسود هنالك مصير واحد فقط . وهو مصير ابيض ». واضاف فانون يقول « ليس العالم الاسود هو الذي وضع طريق مسلكي . فبشرتي السوداء ليست غلافاً لقيم محددة » [٦] .

ان العنصر الذي وضع طريق مسلكه هو ظاهرة الاستعمار. فقد كانت جزر المارتنيك منذ عام ١٦٢٥ ممتلكات فرنسية . والواقع ان نظرة فانون للاستعمار كانت حتى في كتابه الاول مشبعة بأشد العداء . إذ اعتبره عملية نهب اقتصادي ووحشية وظلم سياسي بل عملية خصي نفساني . ووصف سيزير الاستعمار بانه عملية تحول الانسان إلى جماد . ووافقه فانون على ذلك مضيفاً انه لكي يمكن استعباد الناس من الضروري صرفهم عن

انسانيتهم من خلال اشاعة الحـــيرة والارتباك بينهم بصورة منظمة . ومن الطبيعي ان لا تكون جميع اشكال العنصرية عملاً استعمارياً بالمعنى الدقيق للكلمة . ولكن اللاسامية مثال صادق على ذلك . والنتيجة في الحالتين ، كما يقـــول فانون ، متماثلة . الم يفعل هتلر والنازيون باوروبا نفس ما فعله الاخضاع الامبريالي والهوس العنصري فشربت الشعوب الاوروبية الديمقراطية الطيبة من نفس الكأس التي طالما شرّبتهـــا لشعوب مستعمراتها؟ من الواضح ان هذه الحجة القوية قد استمدها فانون مما سبق لسيزير ان قاله من ان جريمة هتلر هي انــه اذل الرجل الابيض بنفس الطريقة التي سبق للرجل الابيض ان اذل بهـا الرجل الاسود . ويقتبس سيزير عن رينان قوله « ان قيـــام الاجناس المتفوقة باعادة خلق اجنـــاس متدنية أو منحطة هو النظـــام الالهي للبشرية » . واذا كان هنالك من فرق بـــين اعادة الخلق والاخضاع فان الرجـل المحلي الوطني سيكون اخر من يلاحظ ذلك . وكان فانون صلباً عنيداً في هذه النقطة فاما ان يكون المجتمع عنصرياً أو غير عنصري « فالاستعمار العنصري لا يختلف عن أي نوع آخر من العنصرية ، فليس من فرق يـذكر لدى اليهودي مثلا بين لا سامية شارل موراس ولا سامية غوبلز.

ولكن هذه النظرة تثير الدهشة دون شك . فالفرق بين الحالتين قد يعني عملياً الفرق بين الحياة والموت . بيد ان فانون كان متأثراً أشد التأثر بالحجج التي أوردها سارتر في كتابه « اللاسامية واليهودي ». فقد قال سارتر ان اليهودي سمح لنفسه بان يسممه القالب العدائي الذي صنعه الاخرون له . فقد جرد نفسه من طابعه الصادق الخاص في محاولة منه لتجنب التصرف وفقاً للقالب المذكور . وهكذا كان سلوكه بدافع محتوم منبثق من داخل نفسه . ولاحظ فانون ان اليهودي يستطيع احياناً أن ينخرط في صفوف العنصر الابيض الممتاز دون ان يميزه احد ولكن الاسود لا يستطيع التخلص من لعنة لون بشرته . فاضطهاد العالم الخارجي له مسبق ومحتوم وبالغ المدى . يضاف إلى ذلك انه في حين ان اليهودي هو « عنصر خارجي » بالنسبة للنخبة البيضاء فان الاسود ليس « عنصراً خارجياً » بالنسبة لهذه النخبة وحسب بل هو عبد للسيد ايضاً . غير اننا إذا اخذنا بهذا المنطق نجد ان اصرار فانون على ان العنصرية الاستعمارية لا تختلف عن أي لون اخر من الوان العنصرية ، يتصف بالتناقض .

ان فانون نفسه يقول ان الشكل السائد للعنصرية انما يقرره

النظام الثقافي العـــام الذي يكرس ذلك الشكل جزءاً منه كما تقرره الظروف التاريخية التي تولد ذلك النظام الثقافي بالذات . ولقد لاحظ في خطاب القاه في المؤتمر الأول للكتّاب والفنانين السود وهو المؤتمر الذي عقـــد في باريس عام ١٩٥٦ ان بعض الاشكال البدائية من العنصرية هي الان في طريقهـا الى الزوال ولاسيما تلك العنصرية المبنية على المقاييس البدنية كشكل الجمجمة وابعاد السلسلة الفقرية وتركيب الخلايا وما شابه ذلك . وقـدم مثالاً على ذلك ما ذكره العـالم الفرنسي بورو عام ١٩٣٥ من ان المواطن الافريقي الشمالي يمتلك قشرة دماغية رقيقـة يهيمن عليها الجزء الخلفي من مقدم الدماغ (يقابل ذلك قشرة دماغية سميكة لدى الانسان المتقدم) . وربط فانون هذه العنصرية البيولوجية بفترة محددة من الاستقلال الاستعماري كان المواطن المحلي خلالها يستخدم كحيوان للاستفادة من طاقته البدنية وحسب. ولكنه عاد فلاحظ ان احد المسؤولين في منظمة الصحة العالمية قد توصل في عام ١٩٥٤ الى ان « الافريقي لا يستخـدم ما لديه من نتوء دماغي امامي إلا في حالات قليلة جداً وان الافريقي العـادي هو اوروبي ذو نتوء دماغي أمامي » . ولقـد كان هذا النوع من العنصرية سائداً في المانيا خـلال القرن التاسع عشر كوسيلة

للتمييز بين الآريين واليهود . ومع ذلك فمن الصعب الادعاء بان الدور العـادي لليهود في المجتمع الالمـاني كان يقوم على اداء الخدمات البدنية .

ويقول فانون ان ظهور اساليب اقتصادية أرقى وما نشأ من ذلك من تطور فنيين ماهرين وشبه ماهرين في صفوف المواطنين المحليين الاصليين الخاضعين للاستعمار ، قد ولد شكلاً جديداً من العنصرية أشد دهاء مما تقدم. فقد أخذ علماء الاجناس والسلالات البشرية البيض يثنـون على ثقافة السكان المحليين الاصليـين ويصورونها بأشكال دخيلة مصطنعة مقترنة بعطفهم عليها بوصفها شكلاً من اشكال التعبير الصادق عن حالة شعب يتصف بالسذاجة والبساطة الموروثة المحببة . وبذلك يكون اولئك العلماء البيض قد شجعوا بصورة غير مباشرة على استغراق المواطنين الاصليين في حالة الركود التي يمرون بها وثبطوا عزائمهم عن السعي لاحداث تغيير اجتماعي ديناميكي .

واختار فانون هنا مؤلفاً لعالم فرنسي في علم الاجناس البشرية هو او. مانوني [٧]. فقد قام مانوني بدراسة مطولة لمجتمع السكان الاصليين في مدغشقر استخلص منها سيكولوجيا التاريخ الطبيعي

للشعب الملاغاشي وقال إن هذا التاريخ يقوم على أساس «التبعية».
ولقد كانت الاساطير المحلية للسكان تتكهن بقدوم المستعمر الابيض، ومن ثم فان العلاقة الاستعمارية التي اعقبت قدومه بالفعل يمكن ان تعزى الى المواجهة التي تمت بين شخصيتين عنصريتين متمايزتين. فالبيض يسعون بالغريزة الى السيادة والقوة بأعتبارهما سبيل النجاة من مركب «النقص» و «عدم الرضا» (شكل من اشكل التعويض الزائد وفق الصيغة التي وضعها ادلر) في حين ان مجتمع الشعب الملاغاشي نقل ما يحسه من مركب التبعية عن مصادر السلطة الجديدة. وتكهن مانوني بان «مركب التبعية» قد يكون المفتاح السيكولوجي لجميع الشعوب المتخلفة التي كفت حضاراتها عن التقدم. «ليس من شك، في رأيي، بأن الاستعمار يتطلب على الدوام وجود الحاجة الى التبعية. فالشعوب ليست كلها قابلة للاستعمار»[8]. اما ثورة شعب الملاغاشي عام ١٩٤٧ والتي قمعها الفرنسيون بالقوة وسفك الدماء فيفسرها مانوني على انها نتيجة لتقديم تنازلات جعلت السكان الاصليين نصف احرار ونصف محكومين الأمر الذي خلق في نفوسهم شعوراً بعدم الطمأنينة. وتبع ذلك الشعور بالاثم وانتهى الأمر باللجوء الى العنف. وينتج من ذلك، حسب مفهوم مانوني،

ان مصلحة شعب الملاغاشي تقضي بعدم منحه الاستقلال السياسي الفوري.

على ان منطق مانوني هذا يناقض بشكل مذهل المنطق الذي تبناه عالما الاجناس البشرية البريطانيان م.فورتس وئي. ئي ايفانز - بريتشارد في كتابهما « الانظمة الافريقية السياسية » الصادر عام ١٩٤٠ فقد قالا فيه : « ان معظم هذه المجتمعات قد فتحت او خضعت للحكم الاوروبي خوفاً من الغزو . وما كانت لتذعن للفاتحين لو لم تواجه التهديد باستخدام القوة .. » [٩] . وكان سيزير قد حمل على كل من مانوني والعالم البلجيكي آر. بي تمبلز الذي ادعى ان شعب البانتو قد اعتبر البلجيكيين جزءاً من من الطبقة العليا التي يؤمن بقدسيتها . اما فانون فقد أصر على انه بصرف النظر عن السيكولوجيا الجماعية التي كان يتصف بها شعب الملاغاشي داخل مجتمعه المغلق قبل وصول الاستعمار اليه فلا علاقة لهذه السكيولوجيا بالمواقف الجديدة التي تبناها الشعب بعد الاستعمار . فمنذ ان دخل الفاتحون « كف شعب الملاغاشي عن الوجود » . واذن فان القوالب التي يتخذها سلوك شعب ما يجابه قوة استعمارية مسلحة متفوقة ، ليست مبنية على مجموعة مسبقة من قواعد السلوك . على ان الواقع ان مانوني لم يقل

« مبنية على » بل قال « متداخلة في » ومن ثم فان قول فانون بوجود فجوة سيكولوجية هو قول غير واقعي . ولكنـــه من الناحية الاخرى محق في التأكيد على ان الاستعمار هو ابعد مـا يكون عن العمل الخيري بل هو في الواقع استغلال منظم يخلق شعوراً قوياً دائماً من النقص في نفوس الشعوب المُستعمَرة . وما دام قائماً فان الجنس الابيض سيظل يعتبر المواطنين الاصليـــين « اشياء » و «احصاءات» او في أحسن الاحتمالات اطفالاً تائهين لا ينتسبون لأحد ونوعاً من الكسل الجماعي التافه . وكان فانون يؤمن على الدوام بأن مركب النقص هذا المفروض على الشعوب المستعمرة بالقوة لا يمكن ازالته الا بمكافحته ومحاربتـــه ورد الصاع صاعين لاولئك الذين فرضوه . ولقـــد ربط فانون ذلك بتعليق اهمية متزايدة على الآفاق العنيفة من ازالة الاستعمار .

ولست اريد ان أحسن الظن الى مدى الاعتقاد بأمكان تغيير الواقع من خلال توجيه النداءات الى العقل او الى الكرامـــة الانسانية (١٠). ولكن فانون نفسه يشير الى ذلك في نهاية كتابه الاول . ففي كتاب البشرة السوداء والاقنعة البيضاء كان الشاب فانون لا يزال يجلو الجواهر البراقة للعقل العام فهو وحده الذي يستطيع تحرير الظالمين والمظلومـــين على السواء من الحيرة التي

يتخبطون فيها . وكان اهتمامه في غضون ذلك كله ، منصباً على المواطن المارتينيكي المثقف ، على نفسه : اذ لم يكن قد تطور بعد الى بطل « المعذبون في الارض » . « ليس وحش الغابة هو الذي اقصده لان بعض العناصر والعوامل لم تكتسب بعد اهمية لديه » [11] .

٢ ـ الزنجية أو السراب الأسود

« حينما تستعبد الناس تحرمهم من نصف محاسنهم ، وتنشئهم وفقاً لقالبك الخاص الذي يصورهم مثالاً للغش واللصوصية والشر ... ومع ذلك فانك تشكو من انهم يفتقرون الى الشرف والاستقامة ! »*

ذلك ما ورد عن لسان غوستافاس فاسا الذي قضى شطراً من حياته عبداً خلال القرن الثامن عشر. والواقع ان ادب كفاح السود متنوع وقديم قدم تاريخ العبودية في العصر الحديث .وكان هذا الادب مشبعاً بروح من التأرجح بين صوت الاحتجاج

* صور الشاعر العربي هذه الحالة ابدع تصوير فقال :

القاه في اليمّ مكتوفاً وقال له   اياك اياك ان تبتل بالماء

(المترجم)

والاقنـاع اللين وبين صرخات الغضب والتحدي ، بين الثورة وبين التوفيق والمصالحة .

ويعتبر فانون مديناً في الدرجة الأولى لايميه سيزير . وفي رأي فانون ان سيزير تبنى منفرداً روح الكبرياء السوداء لدى شعب الانتيل « انني اتمنى أن أرى الكثيرين من النخبة المثقفة من السود يلجأون للاستيحاء من افكاره » والواقع ان كتاب سيزير Cahier d'un Retour au Pays Natal هو قصيـدة منثورة طويلة تسلق ما يسمى الاستعمار الخير بالسنة حداد نيرانية . وفيه يحرك سيزير نبض الحياة في « الحيوانات » المسكينة التي لا تصلح لشيء عـدا تسميد « نبات قصب السكر والقطن » ، في الرجال السود الذين كان اجدادهم يباعون كالابقار في الاسواق العامة ، اولئك الكادحين الذين بدأوا اخيراً فقط برفع رؤوسهم والسعي لتوحيد صفوفهم مـع سائر الفئات المعذبة في الارض اولئك الذين يمكن ان يتعرضوا للضرب وحتى للقتل دون ان يخشى المعتمدون عليهم مغبـة ذلك . « ان الجنس الذي انتمي اليه هو الكرامة اليانعة التي تدوسها اقدام السكارى » إن روح الغضب والثورة هي التي كان فانون يبحث عنها لدى الشعراء السود تلك الروح التي عبر عنها بصوت صارخ الشاعر السنغالي

الشاب دافيد ديوب فقال « الرجل الابيض قتل أبي ، وكان ابي رجلاً أبياً ، الرجل الابيض اغتصب امي ، وكانت امي امرأة جميلة .. »[1] .

بيد ان سيزير كان يمثل ما هو اشد من الغضب الاسود . لقد كان كتابه يمثل اللب والجوهر من مجموعة القيم والعواطف والمفاهيم التاريخية فيما يعرف «بالروح الزنجية». هذه المجموعة ذات العقدة المتشابكة من المبادىء والمفاهيم التي تمثل بجملها الشعوب السوداء ، قد شكلت في الواقع تحدياً ضخماً لذكاء فانون المعترف بالتمييز .

ان مفهوم الروح الزنجية مستمد ، تاريخياً ، من عدد من موضوعات تراث الكاريبي في القرنين التاسع عشر والعشرين . ولكنها انبثقت ، بصورة اشد تحديداً ، من الحركة الوطنية المحلية في المستعمرة الفرنسية السابقة هايتي . ففي هذه الجزيرة بالذات ولد لأول مرة ضمير الزنجي الذي يعيش في عالم ابيض . ومن بين الموضوعات التي ظهرت في هذه الفترة ذلك الموضوع الذي طالما اسدل عليه ستار النسيان الا وهو ما ينطوي عليه التاريخ الزنجي الافريقي من غنى . وكان الاحتلال الامريكي

لهايتي الذي بدأ عام ١٩١٥ ولم ينته حتى عام ١٩٣٤ ، قد ولّد في الجزيرة ارتجاجاً عاماً أفضى إلى بعث الحياة في الاساطير والامثال والموسيقى الافريقية ، ورافق ذلك رفض النخبة السوداء للثقافة الاوروبية التي تشربوها ونشأوا عليها . وكان الكتّاب الذين احيوا ذلك التراث الافريقي قد أشاعوا بين افراد الشعب تعلقاً بالحياة الريفية والفلاحين واحتراماً لأشد ألوان الثقافة المحلية بدائية بما في ذلك الرقص الشعبي الزنجي .

على ان الحركة الادبية المقترنة بمفهوم الروح الزنجية لم يكتمل اطارها قبل الثلاثينات من هذا القرن . ولم يتم في جزر الكاريبي بل في باريس بالذات، في قلب امبراطورية الاستعمار الفرنسي . وكان ملهموها الثلاثة الرئيسيون هم سيزير وليوبولد سيدار سنغور من السنغال وليون داماس من غينيا الفرنسية ، وكلهم شعراء أصبحوا فيما بعد سياسيين . وكان أثرهم قوياً في فانون. وكانت قصائد سيزير [٢] تمتاز بالفصاحة والبلاغة في حين ان قصائد سنغور غلبت عليها الايقاعات الموسيقية الافريقية . وهكذا ولدت الروح الزنجية على شكل أسلوب أدبي ومواقف عنصرية معقدة وتأكيد على جوهر الثقافة الزنجية وأداة محتملة للتحرير .

على انه ظهرت عند هذه المرحلة مفارقة واضحة . فعلى الرغم من الطابع المميز للشعراء السود فقد تأثر هؤلاء، دون شك، تأثراً قوياً بالتيارات التي ظهرت في الشعر الفرنسي المعاصر. فسيزير وليرو ، على الخصوص ، مدينان بقدر كبير من أفكارهما الى للسرياليين اليساريين مثل اندريه بريتون وغيره . ولكن السريالية لم تكن ، خلافاً لما يعتقده بريتون ، أداة فعالة للقيام بثورة اجتماعية وعنصرية . وكان تأكيدها على العفوية واللاشعور وتفاعلها بالغيبية واللاعقلانية قد طبعها بما هو أقرب إلى الثورة البوهيمية منه الى الثورة التاريخية الملموسة القائمة على التغيير الاجتماعي . وهلل سارتر للشعر الزنجي باللغة الفرنسية واعتبره الشعر الثوري الوحيد المعاصر ولكنه أدرك قصوره كما أدرك قصور مريالية بريتون . ولقد وصف شعر سيزير بأنه مزيج من المشاعر المدمرة والحرة والغيبية وبأنه صرخة نسيجها الأنين والحزن والبغض والحب في آن معا ، ولكنه كان في الوقت نفسه شعراً لايستطيع فهمه وتذوقة الا قطاع صغير من النخبة الناطقة باللغة الفرنسية .

وفي عام ١٩٤٨ ظهرت في باريس روائع من الشعر الزنجي

الحديث اختارها سنغور وقدم لها سارتر . وفي هـذه المجموعة الشعرية نجد الروح الزنجية تسود الكتاب كله . ولكن أبرز ما فيه بنوع خاص هو ان ثلاثة فقط من الشعراء الذين تضمن الكتاب شعرهم افريقيون. أما الآخرون فهم من غيانا والمارتنيك وغواد لوب وهـايتي . وهكذا نستطيع ان نرى في لحظة ان نداء الروح الزنجية والهامها يكاد يكون مقتصراً على أشد زنوج الامبراطورية الفرنسية « رقياً » وعلى المناطق التي خلق فيها الشعور بالغربة مزيجاً فـذاً فريداً من التوق والحنين للروح الافريقية البدائيـة ومن التطرف السياسي والتفوق الفكري . وحتى الشعراء الافريقيون الثلاثة الذين ضم الكتاب مختارات من شعرهم وهم بيراغو ديوب ودافيد ديوب وسنغور نفسـه (جامع المقتطفات) ينتمون جميعهم الى أشد المناطق رقيـاً في افريقيـا الغربية الفرنسية والسنغال . وكان هؤلاء الشعراء قد نفوا أنفسهم نفياً اختيارياً ولد فيهم مشاعر سيكولوجية – ثقافية – عنصرية كتلك المشاعر التي يكنهـا الهنود الغربيون . وهكذا يتضح ان الروح الزنجية الجديدة تكاد تكون منعزلة بكاملهـا عن القارة الافريقية الكبيرة. ولعل هذا السبب وحده ، من دون الاسباب الاخرى ، كاف لتكون ادعاءاتها بأنها جاءت لتقود جماهير

« الحيوانات المتوحشة » السوداء إلى عالم الحرية ، قد ولدت ميتـة .

وأدهى من ذلك ان الروح الزنجية ، بكل ما تتصف به من شراسة ظاهرية ، تقدم تنازلاً صغيراً ولكنـه جوهري للثقافة البيضاء السائدة . فالرجل الأبيض ، سيـد العالم ، لم يحاول قط ان يجشم نفسه عناء خلق مذهب أدبي يـدور حول جنسه الأبيض . فكما قال الشاعر النيجيري وول سوينـكا ، ماالذي يحوج النمر الى ان يعلن « تنمره » ؟ ومع ذلك فان بعض الزنوج مثل سنغور وسيزير جعلوا جانباً من عواطفهم وعقولهم مرتهناً لدى الثقافة البيضاء . فهنالك خط من الاستمرارية بين قصيدة سنغور « لوكسمبرغ » التي نظمها عام ١٩٣٩ ووصف فيها نفسه بأنه مولد ثقافياً وبين سياسته الموالية لفرنسا عندما أصبح بعد ذلك بعشرين عاماً رئيس جمهورية السنغال . أما بالنسبة لسيزير فسنرى كيف استقبل أندريه مالرو عندما وصل الناطق بلسان ديغول الى جزر المارتنيك عام ١٩٥٨ .

لقد أخذ فانون شيئاً فشيئاً يعي ذلك كـــله من خـلال عملية متواصلة من التصفية والتمحيص . ففي بادىء الأمر كانت

عواطفه تتأرجح اقترابا وابتعاداً من اشادة سيزير ببدائية الزنوج « فليست الافواه هي وحدها التي تغني بل الايدي والاقـــدام والبطون والجنس والمخلوق بكامله فهو ينصهر كله في الصوت والايقاع » ويتساءل سيزير في قصيدته هذه « ما نحن ومن نكون؟ » ويمضي فيقول « سؤال مثير للدهشة ! فبفضل مراقبة الاشجار غدوت شجرة .. وبفضل التفكير بالكونغو غدوت بنفسي كونغو تضج بالغابات والانهار » والقى فانون نفسه وهو يقرأ هذه القصيدة وما ماثلها ، وقد اجتاحته هذه الكونغو المثـيرة وهزه رفض سيزير المتحدي لقوة الرجل الابيض التكتيكية والعسكرية .

هنيئاً لاولئك الذين لم يخترعوا قط شيئاً .

لاولئك الذين لم يرتادوا شيئاً .

لاولئك الذين لم يخضعوا شيئاً [٣] .

اولئك هم السود الذين « بدونهم لا تكون الدنيا دنيـا » ، اولئك هم الكادحون الذين تنطلق زنجيتهم الى عنان السماء . ويصف فانون الصورة التي يرسمها سنغور للزنجي بأنها من حيث الجوهر صورة رجل عاطفي تضرب جذوره عميقاً داخل الارض ،

رجل يذيب ذاته في العـالم كله دون تمييز في حين ان الاوروبي يقصي نفسه عن الطبيعة حتى يتمكن من اخضاعهـا والسيطرة عليها . وفجأة تؤكد عقلانية فانون نفسها فيقول ان الحـلم قد انتهى « وعلى الانسان ان لا يستسلم للايقـاع الموسيقي ولحب الارض الأم هذا اللغز والزواج الدنيوي الذي يربط الجماعة بنظام الكون »[٤] .

وهكذا يمكن القول، مجازاً ، ان فانون قد وقف امام المرآة يحاول تجربة ارتداء عباءات مختلفة القياس زاهية الألوان نسيجها البدائية السوداء ومقاسها تاريخ السود . ثم اخذ يلبس عبـاءة وينزع أخرى وهو يجربها كلها واحدة اثر الاخرى . ثم استعرض نفسه امام الرجل الابيض وهو يرقص أمامه عارياً من الثياب وفي يده حربة ولكن ذلك لم يترك في نفس الرجـل الابيض انطباعاً طيباً . « فدفعته وقلت له بصراحة : تعود عاداتي فلست متعوداً عادات احد » وهنا قال الرجل الابيض ان المهمة الجدية في العـالم هي مهمة السيطرة على هذا العالم . واصبحت عقيدة فانون النهائية تتلخص بجلاء في : « لا ينبغـي لي ، بأي شكل من الاشكال ، ان استمد هدفي الأسـامي من ماضي

الشعوب الملونة . ولا ينبغي لي ان اكرس نفسي ، بأي شكل من الاشكال ، لبعث حضارة زنجية غير معترف بها » [٥] . ولقد اصر ماركس ، على كل حال ، انه « ليس في وسع الثـــورة الاجتماعية ان تستمد أشعارها من الماضي بل من المستقبل وحده. وليس في وسعها ان تبدأ بنفسها قبل ان تجرد نفسهـــا من جميع الاساطير المتصلة بالماضي » واضاف فانون من عنده : « ان اولئك الرجال وحـــدهم من الزنوج والبيض الذين يرفضون ان يسمحوا لانفسهم بالتقوقع داخـــل برج الماضي المتجسد ، هم الذين لا يستبعدون » .

وهكذا اصبـح من الواضح ان الشاب الصغير فانون مصمم على ان يأخذ طريقه من خلال ما عاناه شخصياً من حالات الاذلال ، نحو اختراق جدران التحيز واللاعقلانية والوصول الى عقلانية عامة شاملة . هنا ايضاً كان نفوذ سارتر واضحاً فقد قال في مقاله المعنون « اورفي نوار » « Orphée Noire » والمنشور عام ١٩٤٨ ان الفكرة الذاتية الوجودية العرقية للروح الزنجية تتحـــول ، وفقاً للمنطق الهيغـــلي ، الى فكرة موضوعية ايجابية لطبقة البروليتاريا . فتأكيد التفوق الابيض يقـــدم الطريحة كما ان

الروح الزنجية ، بوصفها قيمة أصيـلة ، هي السلبية . أمـا الحصيلة فهي خلق مجتمع لاطبقي . وبذلك تكون الروح الزنجية هي التعبير الاصغر عن تقدم ديالكتيكي .

وعلق فانون على ذلك فقال « عندما قرأت تلك الصفحة أحسست بأنني جردت من آخر فرصة لي .. » وحاول فانون ان يثأر لنفسه ، فكتب يقول « لقد نسي (سارتر) ان على الوعي ان يفقد نفسه في غياب المطلق ... فالوعي الملتزم بالممارسة يجهل ، ولابد ان يجهل ، جوهر وحتمية وجوده »[٦] . ولكن ذلك لا يحدي لأن فانون هو بالضبط واحد من اولئك المفكرين الذين ينفجر « التزامهم بالممارسة والخبرة » داخلياً من خلال نظرتهم الخارجية الى انفسهم . وكان منطق سارتر قد نفذ الى داخل المارتنيك بالذات كما يستدل على ذلك من مقال نشره فانون بعد ذلك (عام ١٩٥٥) وقال فيه ان ولادة السياسات البروليتارية في المارتنيك قد جاء في نفس الوقت الذي ولد فيه الوعي الزنجي . والواقع ان سيزير نفسه قد نسق جهوده مع جهود الشيوعيين الفرنسيين واخذ يدعو (وان كانت دعوة نسيجها البلاغة والفصاحة قبل أي شيء آخر) إلى اشعال نيران ثورة بروليتارية في اوروبا .

على اننا عندما نتأمل في الموقف غير الودي الذي وقفه فانون فيما بعد من كلتا طبقتي البروليتاريا البيضاء والطبقة العاملة الناشئة في المستعمرات – وهو موقف قائم على نظرة متطورة شاركه فيها سارتر الى حد كبير – نجد ان هذه التكهنات الديالكتيكية قد تشبه بالونات ملونة تنتقل ذهاباً واياباً بين اوروبا والبحر الكاريبي . ولعل من سخريات القدر في تاريخ الفكر ان كلا من سارتر وفانون قد تخليا عن طبقة البروليتاريا خلال عملية مخاض انتقالهما من شكل الانسانية الاشتراكية إلى شكل اقوى من الماركسية الجديدة المبنية على الثورة العنيفة .

ان سارتر رجل ممتاز ولكن ذلك لا ينفي ان فانون سيبقى في كل الحالات رجلاً اسود . وعندما يغلق فانون صفحات كتب سارتر وهو مصمم على ان يقتفي أثر المعلم ويتعالى فوق فكرته المرحلية عن الروح الزنجية ، يظل من المحتوم عليه ان يواجه عالماً أبيض لا يقيم لشهادته العلمية الطبية من الوزن ما يقيمه للون بشرته الاسود . ويبقى كذلك ان فانون لا سارتر هو الذي سيواجه سخرية الناس . هنا نجد ان المأزق الذي يجد المفكر الاسود نفسه فيه مماثل لورطة بيغر توماس بطل رواية رتشارد رايت « الابن الاسود » وهي الرواية التي أثارت اعجاب فانون . ففي

هذه الرواية جاء التهديد الاعظم الذي تعرضت له حياة بيغر ، عندما حاول التودد اليه ومعاملته على قدم المساواة ، من اثنين: فتاة غنية وصديقها الشيوعي . فقد كان كرم اخلاقها يهددالهوية التي رسم المجتمع الابيض مواصفاتها له، وبالتالي كان ذلك يعرض للخطر ردود فعله الدفاعية دون ان يضمن له بأية حـــال من الاحوال ما يقيه خطر انتقام ذلك المجتمع منه . وهكذا يقتل بيغر الفتاة وهو نصف واع ، ويحرق جثتهـا ثم يشرع في رحلة طويلة قائمة على البحث الوجودي واكتشاف الذات يتجول خلالها بين المباني المهجورة من الجانب الجنوبي من شيكاغو . « فالثقـة لا يمكن الآن ان تعود من جديد الا من خلال عمل يبلغ من شدة العنف حداً يمكنه من النسيان (٧) » . ويبدو ان الشاب الصغير فانون يواجه نفس الاختيار مع فارق واحد هو النكوص عما فعله بيغر كما يجدر بطبيب مثله ان يفعل .

في عام ١٩٥٦ حضر كلا فانون ورتشارد رايت خالق شخصية بيغر المؤتمر الأول للكتاب والفنانين السود في باريس . والقى رايت كلمة قصيرة أعرب فيها عن رأيه بأن الحصيلة النهائية للتدخل الاوروبي في افريقيا كانت تحرير الافريقيين من ماض لا عقلاني وتهيئتهم للدخول في عصر النهضـة المبارك . ومع ان

هذه الخطبة لم تظفر باعجاب فانون الا انهـا لفتت الأنظار إلى مأزق الاختيار الصعب فيما يتعلق بتكوين وعي زنجي موحَّد الاطار يمتد الى ما وراء مشكلة الروح الزنجية المحـددة . وفي عام ١٩٤٧ أسست في باريس مجلة « بريزنس افريكان » وأشرف على تحريرها اليون ديوب وتولاهـا بالرعاية عدد من الفرنسيين الاحرار اليساريين بينهم اندريـه جيد وكامو وريفيت ومونيير وسارتر ونافيل وليريس . ولقد كان لهذه المجلة أثر عميق في فانون فقد اقتبس منها الشيء الكثير في كتابه البشرة السوداء والأقنعة البيضاء . واليهـا كان يعزو قدرته على تنسيق البواعث السيكولوجية التي تهيمن على تصرفات الملونين .على ان ماحاولت صحيفة بريزنس افريكان اخفاءه وأماط اللثام عنه مؤتمر باريس هو تلك الثغرة الواسعة التي تفصل بين موقف الزنوج الفرنسيين وموقف الزنوج البريطانيين وبين موقف كلتا هاتين الفئتين من جهة وموقف الزنوج الأمريكيين من جهة أخرى . فقد كتب فانون يقول : « انني أشعر باهتمام بالثقافة الفرنسية والحضارة الفرنسية ،الشعب الفرنسي . فنحن (السود) نرفض ان نعتبر «خوارج» ، نحن نسهم اسهـاماً كاملاً بالدراما الفرنسية[٨] . ولا يعني لك رفض الروح الزنجية وحسب بل يعني الانصهار في أوسع

الثقافات العالمية . وهكذا وجد فانون نفسه في عام ١٩٥٦وجهاً لوجه مع واقع انقسام الزنوج وفق خصائصهم الاوروبية المختلفة وهو انقسام جعله فيما بعـــد يعتبر ثقافة الزنجي مثـل ثقافة الرجل الابيض ثقافة ذات مميزات قوميــة في الدرجة الأولى . ولقد تحدث سنغور في المؤتمر مؤيداً هذه النظرة فقال ان الزنوج البريطانيين والامريكيين يتبنون النظرية التجريبية (البرغماتية) في حين ان الزنوج الفرنسيين منطقيون ديكارتيون « وهـذا هو السبب في انكم أحياناً لا تفهموننا كما اننـــا بدورنا لا نفهمكم ». كذلك فان تقرير جيمس بلدوين عن المؤتمر [٩] مستنـــداً الى انطباعاته الخاصة عن أسلوبي سنغور وسيزير الخطابيين يدل على اشارة سنغورالىصعوبة التفاهم بين الفرنسيين والانغلوساكسونيين من الزنوج ليست بعيدة عن الواقع . ولقد يسوغ لنا ان نطلب بالتالي من النائب الاشتراكي الفرنسي ان يحاول ان يفهم الاسباب التي تدعو النائب العمالي البريطاني لقضاء فترات الصباح من أيام الاحد في الكنائس . فقد كان يعتنق الدين المسيحي معظـــم الزعماء الافريقيين البارزين من ذوي الثقافة البريطانية وفي طليعتهم كنياتا ونيريري وكاؤندا ونكروما . وعندما وصل فانون عام ١٩٦٠ إلى اكرا عاصمة غانا ليكون سفيراً لحكومـــة الجزائر

الموقتة فيها، وجد نفسه إلى حد ما لايتعاطف مع ثقافة تختلف كل الاختلاف عن ثقافته . على انه من الواضح من الناحية الاخرى ان المسيحية في الولايات المتحـــدة تقترن اليوم على نحو مطرد الزيادة في نظر النخبة من الزنوج المثقفين بالضعف والاندماج ومن ثم ظهر اتجاه جديد نحو ديانة اسلامية سوداء او نحو الحاد الماركسية الجديدة .

بيد انه إذا كان الزنوج الذين حضروا مؤتمر باريس وجدوا أنفسهم منقسمين فان فانون لم يسمح لنفسه بأن يعتبر اللجوء إلى الروح الزنجية كحل لذلك الانقسام . فلم يقرّ سنغـور على ان الثقافة والتاريخ الافريقيين يؤمنان أطرا ومبادىء قابلة للحياة. فقد كتب في عام ١٩٦١ يقول : « ان الاعتقاد بأنه من الممكن خلق ثقافـــة سوداء يعني نسيان ان الزنوج انفسهم ، بطابعهم ونفسيتهم القديمة ، قـــد بدأوا يختفون كما بدأت نفس تلك الشعوب التي خلقت الزنجية بطابعها القديم المعروف تشهد انهيار تفوقها الاقتصادي والثقافي »[١٠]. واعتبر فانون اقدام سنغورعلى ادخال « الروح الزنجية » كموضوع للدراسة في مدارس السنغال خطوة انتكاسية رجعية .

ويحلل فانون في كتابه « المعـــذبون في الارض » تطور

الكتابة المحلية في المستعمرات من خلال تقسيم ذلك التطور إلى ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى كانت هنالك محاولة لاستيعاب وتمثل ثقافة المستعمرين والمحتلين ، فقد بلغ انصهـــار الكتاب المحليين حداً جعلهم يقلدون ويتبنون مثلاً الشعراء الفرنسيين الرمزيين والسرياليين . وفي المرحلة الثانية بدأ التراجع بحثاً عن هوية محلية صادقة اصيلة ولكن المشكلة هنا ، كما يقول فانون ، ان الكاتب المحلي الوطني يجد نفسه ، بسبب ثقافته الاوروبية ، مقطوع الجذور التي تربطه بشعبه . ومن ثم يضطر الى الاعتماد على الاساطير ويبالغ في الاهتمام بالجوانب الداخلية الغريبة من الادب والفن الشعبي . اما المرحلة الثالثــة فقد بدأت مع ظهور الادب الثوري المكافح . وفيها بدأ الكاتب المحـلي الوطني يلجأ الى الشعب ليتعلم منه ويوحي اليه وينصهر في النهاية كلياً في خضم نضاله .(وكان ماو قد دعا بالطبع الى مثل هذا الادب في مسرح ينان) . واعتبر فانون قصيدة كيتا فوديبـــا « فجر الافريقي » مثلاً رائعاً على الروح الثورية المناهضة للغيبية .

ولقد كان هذا التقسيم مماثلاً جداً لذلك التقسيم الذي وضعه سارتر والذي تمثل فيه الروح الزنجية المرحلة الثانية المتوسطة . ويكمن وراء سارتر الفكر الديالكتيكي لكل من ماركس وهيغل .

ومن الواضح ان هذه التفسيرات الثلاثية المراحل تلقى تجاوباً دائماً لدى العقل البشري . ولكن مما يلفت النظر بنوع خاص في حالة فانون ، كيف أمكن ان تتولد من خلفيته الهندية الغربية وتراثه الفلسفي العقلاني فكرة تجريدية تتجاهل العوامل المتغيرة للتطور الافريقي . فالانسان المارتنيكي فيه يتجاهل اثر اللغات الافريقية المحلية المعقد سواء منها ما كان شفوياً او كتابياً . وكما أشار جاهن فان الادب المبتدىء لا يعني بالضرورة استيعاب وتمثل ثقافة ولغة المحتلين . فأدب البانتو المبتدىء كان يعبر عنه بصورة عامة باللغات المحلية ، وكان مبنياً على تقليد تناقل القصص والروايات شفوياً . وبخلاف ذلك كان قدر كبير من أدب الاحتجاج والكفاح المبكر باللغات الاوروبية . ثم ان كاتباً افريقياً مثل افرايم آمو من ساحل الذهب استطاع ان يؤلب مواطنيه على الغزاة الفاتحين وهو يخاطبهم بلغته المحلية الاصلية « توري » وهو ما لم يكن في وسع كتاب منطقة البحر الكاريبي ان يفعلوه في وقت كانوا فيه عاكفين على إجادة لغتهم الفرنسية ووضعها في خدمة « روح زنجية » غريبة ومصطنعة الى حد ما. والواقع ان فانون ظل من بعض الوجوه غريباً عن واقع القارة الافريقية التي حمل لواء تحريرها بحماس منقطع النظير .

٣ ـ فلسفة في مرحلة انتقالية

ان الشكل الذي يتخذه كتاب ما ينم إلى حد ما عن محتوياته . وانطلاقاً من ذلك نلاحظ ان صفحات كتاب « البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » مثقلة بالمراجع والهوامش العلمية بخلاف ما نلاحظه في كتاب «المعذبون في الارض ». فمع ان الكتاب الاول تنبض فيه الحياة من خلال التجارب الكثيفة الخاصة للمؤلف نفسه إلا ان هذه التجارب قد فسرت بعناية بالغة في ضوء تعاليم العديد من الفلاسفة وعلماء النفس واللغة والسلالات العرقية البشرية. أما الكتاب الثاني فان الحياة تتدفق فيه من خلال المداد الذي كتب به . ومع انه من المؤكد ان الشاب فانون كان كاتباً ملتزماً ومنهجياً إلا انه كان كذلك مفكراً ناشئاً . ولقد

وصف كتابه « البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » بأنه « دراسة تحليلية هادئة » .

ومع انه لا داعي لإعداد قائمة كاملة بالمصادر التي استشهد بها فانون او انتقدها في كتابه الاول إلا إنه لا بد من الاشارة الى انه تعرض لأفكار هيغل وماركس ونيتشه وفاليري وجاسبرز ومارسل ولاكان وبياغيث وموليير وليريس وجيد ودوهاميل ناهيك بسارتر وميرلو – بونتي اللذين استمع فانون الى محاضراتهما في ليون . أما فيما يتعلق بالمحللين النفسانيين فان فانون يؤثر الكبار المعروفين منهم مثل فرويد ويونغ وادلر وليكونت إلى آخر هذه السلسلة . فقد ظفرت دراسات جميع هؤلاء باهتمامه البالغ . ولكنه في كتبه التالية خفف من الاعتماد على هذه الركائز إذ لم يعد مفسراً للفلسفة الاجتماعية بل غدا صانعاً لها .

ان تطور افكار فانون يوازي من بعض الوجوه تطورافكار ماركس ولكنه – خط تطور افكار فانون – أشد التصاقاً بخط تطور افكار سارتر . فلقد كان ماركس في اوائل حياته (قبل عام ١٨٤٥) شبيهاً بفانون في مطلع شبابه من حيث الميل الى معالجة « الانسان » كما لو كان عنصراً مجرداً . ففي كتاب

« مخطوطات اقتصادية وفلسفية » تحدث ماركس عن « قوى الانسان الاساسية » وعن « جوهر الانسان » وعن « الطبيعة البشرية الصحيحة » . أما فانون فقد كتب يقول في مطلع شبابه « ان جميع انماط الاستغلال متماثلة لأنها جميعاً تتناول (الموضوع) نفسه : الانسان » ويضيف قائلاً ان نسيان ذلك هو بمثابة « ان يدير الانسان ظهره ببساطة للمشكلة الاساسية الرئيسية ألا وهي إعادة الانسان الى مكانه الصحيح »[١] . ومن الواضح ان فانون قصد بعبارة « المكان الصحيح » نفس المحتوى الانساني الذي قصده ماركس بعبارة « الطبيعة البشرية الصحيحة » . ومع ان ماركس كان منذ مطلع شبابه مادياً واقعياً بحيث حلل الحالة الانسانية باعتبارها حالة اجتماعية إلا انه كان ميالا الى موازنة الخلافات البشرية بالخلافات النفسية . ولعل هذا هو ما قصده فانون عندما قال « انني آمل جدياً باقناع اخي ، اسود كان أو ابيض ، بأن يمزق بكل قوته الزي المخزي الذي نسجته مئات الاعوام من سوء الفهم »[٢] . ومن الممكن اعتبار « سوء الفهم » هنا بمعنى « الغيبية » و « الوعي الباطل » عندماركس.

على ان القول بأن جميع أنماط الاستغلال متماثلة هو قول لا يصمد أمام الاعتراضات المنطقية المعروفة . فهل صحيح مثلاً ان

جميع اشكال الالم الجسدي الذي ينزله عامداً انسان بإنسان متطابقة متماثلة لمجرد انها تنزل بالانسان ؟ ومع ذلك اليس بطرح أمثال هذه الأسئلة استطاع فانون ان يتسامى بالنزعة التي كانت تتملكه في مطلع حياته من حيث التجريد البشري العرقي ؟

الواقع ان كلا من ماركس وفانون يشكلان تقدماً من الصعيد الانساني نحو الصعيد الاجتماعي . ولكن الموضوعات الاولى عند الرجلين ليست محالة تحليلاً اذا نظرنا اليها في ضوء صعيد جديد اشد واقعية مما تقدم . فقد تبين الآن مولد منطق عام يتطلب احداث تغييرات تاريخية واجتماعية . ولقد كتب ايميه سيزير مثنياً على فانون يقول ان كتابه «البشرة السوداء والاقنعة البيضاء» هو الكتاب الحاسم بشأن العواقب الانسانية للاستعمار والعنصرية في حين ان كتابه «المعذبون في الارض» يعتبر مفتاح عملية إزالة الاستعمار . ولقد كانت فكرة « التحرير » لا فكرة « الثورة » هي المنطق المهيمن على كتابه الاول إذ لم يرد فيه أي ذكر للاشتراكية . ولعلنا نستطيع ، اذا شئنا استخدام عبارات خرى لشرح ذلك ، ان نتحدث عن ثلاث شخصيات متعاقبة منبثقة من فانون : شخصية الرجل الرافض للتحول (بشرة

سوداء وأقنعة بيضاء) ،شخصية المواطن الجزائري الحر (دراسات حول استعمار في طريقه الى الموت) ثم شخصية الثوري الاشتراكي (المعذبون في الأرض) . ولقد كتب آر. دي لينغ يقول : « ان مهمة وصف الظواهر الاجتماعية وتطورها هي ربط تجربتي بتصرفات الآخرين بتجربة الآخرين بتصرفاتي »[٣] . وهذا بالضبط هو ما كان فانون يحاوله في كتابه الاول . أما فيما كتبه بعد ذلك فقد تراجع التركيز على الوصف أمام دراسة الديالكتيكية الثورية . واصبح فانون بذلك معنياً بكيفية استخدام العنف في قلب اوضاع الظلم السائد ، حتى تستطيع النفس المستعمَرة تحقيق التقدم والروح الفردية الأصيلة . (ماركس : « ان الفلاسفة اقتصروا على تفسير العالم على نحو مختلف ولكن المطلوب هو تغيير هذا العالم ») وكانت أفكار ماركس قد بدأت تتبلور في العام ١٨٤٥-١٨٤٦ . أما بالنسبة لفانون فقد كانت الفترة الحاسمة التي أعاد فيها قولبة افكاره هي تلك الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦ . وكما امتدت جذور تحول ماركس الفكري فيما بعد الى قسمة العمل والى الصراع الطبقي فان جذور التحول الفكري لدى فانون امتدت الى قيام الاستعمار بقسمة العالم الى اقطار فقيرة واخرى غنية اقطار مستغِلة واقطار مستغَلة ،

حاكمة ومحكومة .

وتعتبر الطبقـــة الـكادحة العاملة – البروليتاريا – في نظر ماركس نموذجاً للاستغلال الاجتماعي في أشد حالاته تطرفاً . أما عند فانون الشاب فإن هذه المرتبة يتشرف بشغلها المستعمرون السود . ولقد فعل فانون في أواخر حياته ما فعله ماركس في السنوات المتأخرة من حياته ايضاً اذ حول الطبقة المعرضة إلى أقصى الاستغلال إلى طبقة عالمية رسالتهـــا التاريخية هي قلب الأوضاع الاجتماعية التي تولد الاستغلال . وعندما تصل هـــذه الطبقة إلى مرحلة الوعي العقائدي الصحيح لحالتهـــا الجماعية الخاصة تصبح اطار الحقيقة التاريخية . « فالفلاح والعاطل عن العمل والمواطن الاصلي الجائع لا يسعون إلى الحقيقة ولا يدعون أنهم يمثلونها ، ذلك انهم هم الحقيقة نفسها » [٤] .

وكان فانون قد بدأ دراسته في فرنسا في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية عندما كان أثر تعاليم سارتر بوصفه فيلسوفاً وقصصياً كاتباً مسرحياً ومفكراً اشتراكياً قد بلغ ذروته . وليس من شك في ان فانون مدين لسارتر بالشيء الكثير ، ولقد كان فرانسيس جنسون أحد مريدي سارتر المقربين هو الذي كتب مقـــدمة

النسخة الفرنسية الاصليــــة من كتاب فانون البشرة السوداء والاقنعة البيضاء . والحقيقة ان كتابات فانون هي إلى حد كبير صدى لمفاهيم سارتر . فقــد قال سارتر في مؤلفه القيم عن جين جينه : ان المجتمع البورجوازي هو الذي جعل منه لصـاً وذا ميول جنسية شاذة . « لقــد أخذوا طفلاً وجعلوا منه وحشاً لأسباب تتصل بالمجتمع » ولم يكن الدرس بالنسبة للزنجي ضئيل الأثر . الا ينطبق المنطق نفسه على بيغر توماس في رواية رايت « ابن من السكان الاصليين » ؟

بيد ان فانون لم يكن فيلسوفاً بل كان فيلسوفاً اجتماعيـاً . فأمثال سارتر من الفلاسفة مثلاً يمحصون « المنهج » تمحيصاً دقيقاً ولكن منهجية فانون هي بصورة عامة ، ضمنية (وقد أصبح ذلك صحيحاً بصورة متزايدة في مؤلفاته المتأخرة) في حين ان منهجية سارتر محددة بجلاء . وفي الوقت نفسه لابد من القول بأن الزنجي « يقذف في العالم » بمفهوم لايستطيـع الرجل الابيض ان يستوعبه ومن ثم فان شهادة فانون توفر دليلاً لا غنى عنه مطلقـاً لنظام سارتر الأوسع والاشد تعقيداً . والواقع اننا إذا قسنا الامور في ضوء الفلسفة الاجتماعية نجد ان فانون قد قطع خلال انتقاله من كتابه « البشرة السوداء والأقنعة البيضاء » إلى كتابه « المعذبون

في الارض » نفس الرحلة التي قطعها سارتر من كتابه « الوجود والعدم » إلى كتابه « نقد المنطق الديالكتيكي » . ولعل التمييز الرئيسي بين الرحلتين يكمن في ان كتابي سارتر يضمان أبحاثاً جوهرية تتناول المنهج الفلسفي كما ان نشرهما سبق كتابي فانون السالفي الذكر وترك فيهما أثراً قوياً . ولكننا نجد كلا الكاتبين يتراجع تراجعاً ملحوظاً عن التركيز الوجودي على حرية الاختيار الفردية مصحوباً باهتمام متزايد بالحتمية الاجتماعية . وأخيراً يعلن سارتر نفسه ماركسياً منزلاً الوجودية إلى مرتبة ذات فلسفة جانبية هامشية تختفي حالما تنصهر أفكارها في السلوك الفردي انصهاراً تاماً في الماركسية التي غدت تتجه ، في أيدي ممارسيها المعاصرين ، نحو « انتربولوجيا غير انسانية » . وأكد فانون كذلك على اهتمامه بالوحدات الصغيرة من المجتمع . ولقد أخذ الشيوعي الفيتنامي بنغوين على فانون انه استبقى بعض الآثار الوجودية في مؤلفاته الاخيرة ولا سيما فيما يتعلق بنظريته عن العنف .

ولقد ازداد هذا التطور العام في أفكار فانون جلاء من خلال ما نشره من نظراته في التحليل النفساني والعلاج النفسانيين . والعداء التقليدي بين طريقة فرويد في التحليل النفساني وبين

الماركسية أو بين وجودية سارتر ومدرسة فرويد الفكرية لهو أمر معروف كل المعرفة . وفي حين ان الاتجـاه في « العلوم الطبيعية » يسير نحو تقسيمها وتعريفها من خلال اختلاف قطاعات المادة والحياة التي تدرسها فان « العلوم الاجتماعية » كثيراً ما تشبه الجيوش التي تتنافس على احتكار تفسير نفس الاحتياطي . فنحن نجد ستوكلي كارمايكل يخطب في مؤتمر « ديالكتيك التحرير » الذي عقد في لندن في تموز ١٩٦٧ فيقول : « لست عالماً نفسانياً أو طبيباً نفسانياً بل أنا مناضل سياسي ، ولا يعنيني أمر الفرد فأنا اعتقد ان تحدث الناس عن الفرد هو نوع من التهرب . وانني أريد التحدث عن النظام [٥] » . ولكنه ، يا للمفارقة العجيبة ، يمضي إلى تأييد النظرة الفردية حينما يلجأ إلى الاستشهاد « بقديسه » فرانز فانون وان كان من الواضح انه أساء فهم ما استشهد به . ذلك ان قول فانون « ان استعباد الرجل الأسود ليس مشكلة فردية » لا يعني مطلقاً ان الحديث عن الفرد تهرب من المشكلة. والحقيقة ان الفلاسفة الاجتماعيين الذين يسلكون هـذا الدرب الصعب ويقصرون دراساتهم على الفئات والوحدات الاجتماعية الصغيرة كثيراً ما يقعون في « الانتروبولوجيا غير الانسانية » التي شكا منها سارتر . ولعل من أعظم حسنات فانون انه على

الدوام يعزو الحـــالة النفسانية للفرد إلى مجتمعه دون ان يهمل النظر إلى الفرد نفسه .

يعتقد فانون ان مركب النقص الذي يعانيه الزنجي يعود في الدرجة الاولى الى جذور اقتصادية ولكن الرجل الاسود حوله بمرور الزمن الى صفة ذاتية تتصل بلون البشرة . وانتقد فانون فرويد لمبالغته في التركيز على « التطور الفردي » للكائن البشري مصراً على ان فهم نفسية الجماعـــات لا يتأتى إلا من خـلال التشخيص الاجتماعي لها (٦) . ولكنه كان يقدر كل التقدير، على الرغم من موقفه الانتقادي من فرويد وأدلر ويونغ ، اهميـــة دراستهم للشعور المكبوت والتسامي والتعويض رابطاً ، بتحفظ شديد ، ما بين نظرية فرويد في الدور الذي يلعبه الجنس في عهد الطفولة من حياة الانسان ونظرية يونغ في اللاشعور الجماعي .

وقال فانون ان التفسير المبني على التحليـل النفساني لمشكلة الزنوج هو وحده الذي يستطيع ان يكشف النقاب عن ابعاد لشـــذوذ الذي أدى الى مركب النقص المذكور واضاف ان لتركيب العصابي لفرد ما هو ، ببساطة ، تطوير وانفجار داخل س لمجموعة الصراعات الناشئة جزئياً من المحيط والظروف

ومن ناحية اخرى من الطريقة الشخصية التي يتجاوب بها الفرد مع هذه التأثيرات . ولكن هذا كله مجرد وصف للحالة . أما المشكلة فهي مشكلة المسببات أي أصل العلة وكيف نشأت . والحقيقة ان فانون حاول ان يصطنع أو يوفق بين التقاليد العارضة والتي يعتبر احياناً بعضها غريباً عن بعض سواء تناول العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسانية مع التركيز الوجودي على حق تقرير المصير . والواقع ان صعوبة التوفيق بين هذه التقاليد واضحة بنوع خاص في بحثه لحالات العصاب الجنسي في ضوء العنصرية والعرقية .

ولقد أقر فانون نظرية بيير نافيل بأن أحلام المرء وحالته من الوجهة الجنسية تستمدان شكلها من حالة الفرد الاجتماعية الاقتصادية ولكنه ربط هذه الفكرة بالتوجه الجنسي للزنوج نحو البيض اكثر مما ربطها بالرهبة الجنسية التي يحسها البيض تجاه السود . واوضح ذلك في ضوء الرغبة العارمة التي تتملك الانسان الزنجي وتدفعه لاكتساب الثقافة المسيطرة والانصهار فيها والظفر باعترافها به . ويضيف فانون بهذا الصدد ان النساء البيض اللواتي يشعرن بالخوف من الزنوج يتصفن عادة بخلفية جنسية شاذة ويتوهمن ان لدى الزنوج طاقة جنسية خارقة حرمن من مثلها وهن في الوقت نفسه يخشينها . أما

الرجال البيض الذين يشعرون بالخوف من الزنوج فهم ممن يعانون من مركب نقص جنسي . فالرجل الأبيض في مثل هذه الحالة يحول رغباته الجنسية المكبوتة ليلصقها بالزنجي . ولكن فانون هنا يتفادى الزام نفسه بتفسير عام · فهو يشير الى ان « المدنية » بالذات تخلق عصاباً كهذا ويضيف «ان احراز أي قدر من التقدم الفكري يستتبع فقداناً في الطاقة الجنسية الكامنة » . فهو يرى بصورة عامة ان التوجه الزنجي الجنسي نحو البيض هو نتيجة لعدم التأثر باعباء ثقافة ما .

وبعد عام ١٩٥٤ اصبح لدى فانون ميل متزايد للتركيز على الأسباب الاجتماعية – الاقتصادية للانهاك العقلي . وكان يهاجم باستمرار سوء استخـــدام الأساليب النفسانية المتبعة لتكييف الشواذ وفقاً لمجتمع يدعو الى نبذ قطاع معين من الناس . وهو ينتقد بالتالي الأطباء النفسانيين الامريكيـــين الذين يتصدون لتكييف العمال بحيث تنسجم تصرفاتهم مع شروط العمل السيئة في المصانع وذلك من خلال إثارة محاكاة رمزية لأدوار غـــير واقعية . ففي مقال نشره في شباط ١٩٥٢ [٧] لفت الانظار الى الصعوبات التي ينطوي عليها تقديم العلاجات الطبية للافريقيين الشماليين المقيمـــين في فرنسا . فكثيراً ما كان تصرف المرضى

العرب يؤدي الى نفاد الصبر لدى الاطبـاء الفرنسيين وفقدانهم الثقة بحقيقة الأمراض التي يشكون منها . فلقد كان اولئـك المرضى يقدمون للاطباء أجوبة غامضة تربكهم في تعيين مصدر الألم . ولكن الأطباء الفرنسيين البيض لم يكونوا قادرين على إدراك العنصرالنفساني المتولد من حياة العرب فياجواء لم يألفوها بعيدين عن اسرهم واصدقائهم معرضين على الدوام لعدم الاستقرار والطمأنينة وكأنما هم يحيون الموت نفسه . ذلك هو ما يـدعو رجلاً عربياً تبدو عليه مظاهر القوة والعافية الى ان يقسم أمام الطبيب من اعماق قلبه على انه يكاد يموت . فالغربة نفسها هي الظاهرة المرضية التي يعانيها هؤلاء الناس .

ويظهر اعتقاد فانون بأن توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية ، من خلال رسالة الاستقالة التي قدمها إلى لاكوست وزير الجزائر الفرنسي عام ١٩٥٦ . فقد كان فانون طبيباً مسؤولاً في مستشفى العلاج النفساني في بليدا – جوينفيل منذ شهر تشرين الاول ١٩٥٣ . وكان قد مضى على الثـورة الجزائرية في عام ١٩٥٦ عامان وهي تتصاعد يوماً بعد يوم . وبحلول هذا العـام كان فانون قد بلغ نقطة التحول الجذري في علاقته بفرنسا . وأشار في استقالته السابقة الذكر الى ان المعالجة النفسانية علم طبي مهمته الحيلولة دون ان يحس الانسان

انه غريب عن محيطه . ولكن السياسة الفرنسية الرسمية تتعمد ان يحس كل عربي جزائري بأنه غريب عن بلاده نفسها وانه فاقد كل مقومات الشخصية . إنه في الواقع ضحية لمحاولة فاشلة لشل تفكير شعب بكامله . ومضى فانون يقول انه ليس مما يجدي شيئاً ان ينوح الفرنسيون على فقدان الروح الاجتماعية لدى الانسان العربي وميله إلى استخدام خنجره والقتل لأوهى الأسباب مادام هذا العربي يعاني الجوع وسوء التغذية والبطالة ولا يحس بالامن والطمأنينة . واستعاد فانون الى ذاكرته ما شهده في عام ١٩٤٤ وهو جندي شاب ينتظر دوره للصعود الى ظهر السفينة «اوران»، ففي ذلك اليوم شاهد الجنود يرمون بكسرات من الخبز الى الاطفال العرب الذين كانوا يتشاجرون بعنف متسابقين للوصول الى تلك الكسرات وقد اكتست وجوههم بعلائم السخط والغضب والكراهية والعنف متلقنين بذلك قانون المزرعة ذلك القانون الذي لا يسمح لهم المجتمع بنسيانه مطلقاً .

لقد كان المجتمع الافريقي الزنجي مشبعاً بالعادات والطقوس الشاذة التي كان البيض يردونها باحتقار الى فقدان الاستقرار النفساني الداخلي . فالمواطنون الأصليون يؤمنون بوجود رجال على شكل النمرة وآخرين على صورة الافاعي فضلاً عن وجود

كلاب بستة أرجل وماشابه ذلك من السخافات . ويقول فانون ان هذه الأساطير والطقوس تؤدي مهام محددة في عملية الانفعالات النفسانية الجماعية . ففي ظل ظروف مجحفة معينة تنسحب النفس وتنطوي على نفسها ثم تجد لها منفذاً في الحركات العضلية. غير ان هذه العادات تخف بشكل ملحوظ في اثناء الصراع من اجل التحرر . على انه اذا كان فانون يعتبر الطقوس القبلية من نتائج الحكم الاستعماري وحده ، كما يبدو انه يعتقد بالفعل ، فانه يكون مخطئاً . صحيح ان هذه الطقوس تتغير وتتفاقم احياناً بفعل سيطرة الرجل الأبيض كما حدث في ثورة الماوماو ضد المستوطنين البريطانيين في كينيا والتي رافقها الكثير من الطقوس العنيفة إلا انه لا بد من التأكيد على ان اعمال القمع العسكرية البريطانية القاسية نجحت بشكل خاص في الحيلولة دون ظهور حركة تحرر وطني منسق ودفعت الفلاحين المسلحين الى اللجوء الى الأساليب والتشكيلات العقائدية الممهدة لثورة فلاحية اقترنت بافكار اسطورية خرافية .

ولقد ظل فانون منذ استقالته من مستشفى بليدا — جوينفيل عام ١٩٥٦ حتى وفاته بعد ذلك بخمسة أعوام ، يولي اهتماماً بالغاً لحالات الاضطراب النفسي الفردية . ولكن النقاط التي

يركز عليها تتغير تبعاً لما يحدث من تطور عام في افكاره . ففي كتابه « البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » كانت نقطة الانطلاق هي تجربة الفرد ، أما العوامل الاستعمارية والعوامل الاجتماعية العامة فيأخذها بعين الاعتبار كخلفيات لتفسير الحالات ذات العلاقة . أما في كتبه التالية فقد اصبح تركيزه على الصراع السياسي والعرقي مع ذكر حالات محددة من الاضطراب النفسي على سبيل الايضاح . وهكذا كان فانون الشاب نفسانياً محترفاً ذا معتقدات سياسية وعرقية خاصة قوية أما فانون الرجل الناضج فقد اصبح ثورياً أغنى مفاهيمه في نتائج العنف الجماعي بمعلوماته في الطب النفساني .

٤ ـ الجزائر

في غضون بضعة أعوام فقط اضطرت الجمهورية الفرنسية الرابعة إلى التخلي عن ممتلكاتها المستعمرة في الهند الصينية وتونس والمغرب . وتعرض الجيش الفرنسي لإذلال شديد بانهزامه في معركة ديان بيان فو وقرر بالتالي انه لابد له بعد ذلك من الصمود والتوقف عن استمرار التراجع . وكان المكان الطبيعي للبدء بهذا المنعطف وتنفيذ ذلك القرار هو الجزائر التي كانت مستعمرة فرنسية منذ عام ١٨٣٠ وكانت جذور الاستعمار الفرنسي فيها عميقة جداً . فبالاضافة الى الاستثمارات الفرنسية الاقتصادية الضخمة فيها ، بما في ذلك نفط الجزائر ، كان يقطنها ويزرع جانباً كبيراً من تربتها أكثر من مليون نسمة من أصل اوروبي . لقد كانت الجزائر تعتبر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا .

وبدأت الثورة في عام ١٩٥٤ فأعلن منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا حينذاك أنها ستسحق . ومع ان انتصار اليسار في انتخابات عام ١٩٥٦ ، حمل في طياته أملاً بإمكان التوصل إلى تسوية بين الجانبين بحيث تقدم فرنسا بعض التنازلات إلا ان رئيس الوزراء الاشتراكي غي موليه خضع في أوائل عام ١٩٥٧ للجزائريين الفرنسيين المتطرفين وتحول مسرح القتال الى حرب شاملة ملؤها العنف والحقد والقتل والتعذيب الذي امتد من الجزائر إلى فرنسا وأدى الى سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة واستيلاء العسكريين الفاشيست على الحكم .

تلك كانت الخلفية التي خبر فانون في ضوئها اعمال العنف . ولقد ضمّن تجاربه ومعلوماته تلك مجموعة من المقالات جمع قسماً منها في مجلد أسماه « دراسات في استعمار ميت » وجمع القسم الآخر في مجلد ثانٍ أسماه « في سبيل الثورة الافريقية » .

وبحلول كانون الثاني ١٩٥٧ كان لاكوست الوزير الفرنسي المقيم في الجزائر والذي قدم اليه فانون استقالته قد تخلى عن الاشراف على العمليات البوليسية وعمليات الأمن العام في الجزائر ليتولاها عنه الجنرال ماسو من فرقة المظلات العاشرة . واستخدم

رجال المظلات مخبرين ملثمين ليرشدوهم الى المواطنين المتعاطفين مع جبهة التحرير الجزائرية في حي القصبة الشعبي . وبرهنت هذه الخطوة وما ماثلها من أساليب القمع على جدواها وفاعليتها الأمر الذي أوقف اعمال الارهاب داخـــل المدن . واضطرت جبهة التحرير الجزائرية الى الانسحاب نحو المنـــاطق الريفية لتركيز جهودها على حرب العصابات . ومن هذه الخلفية تولدت لدى فانون فكرة كتابه « المعذبون في الارض » .

وهنا يشير فانون ساخراً الى ان الفرنسيين سرعان ما اكتشفوا ان الثورة موحى بها وتـُمول من الخارج ولا سيما من مصر بقيادة عبد الناصر ومن موسكو أيضاً . فحتى البير كامو نفسه دعا في عام ١٩٥٨ الى عـدم التخلي عن الجزائر لئلا يحل محل الفرنسيين فيها الاستعمار الجديد . وأضاف كامو يقول : ان جبهة التحرير الجزائرية تعتزم اجـــلاء ١٢٠٠٠٠٠ اوروبي واذلال ملايين الفرنسيين . ومع ذلك فإن موقف كامو هذا يعتبر موقفاً معتدلاً اذا ما قيس بآراء الضباط العسكريين العاملين في الجزائر. فهؤلاء الضبـــاط أو الكثيرون منهم كانوا يعتقدون أنهم يشنون حرباً مقدسة وانهم يصدون مؤامرة ضد الحضارة الغربية . وكانت أساليبهم في « تهدئة » الأمور مستمـــدة من أفكارهم تلك

ويقول فانون في ذلك انهم حاولوا أول الأمر أن يشطروا الشعب إلى من أسموهم « العقلاء » أو الموالين ومن أسموهم « الثوار » وهي سياسة لا تزال الولايات المتحدة تنتهجها حتى اليوم في فيتنام . ثم وعدوا باجراء اصلاحات اقتصادية واجتماعية واسعة . ولا شك ان بعض هؤلاء الضباط كانوا مخلصين فيما وعدوا به ولكن رجال الصناعة الفرنسيين الجزائريين لا الضباط هم الذين كانوا يهيمنون على السياسة الاقتصادية الجزائرية . وحاول الجيش كذلك وبشيء من النجاح استغلال المنافسة بين جبهة التحرير الجزائرية والحركة الوطنية الجزائرية التي كان يتزعمها مصالي الحاج . فقد قام الجيش بمذابح عديدة ألصقها بجبهة التحرير وكانت أسوأ تلك المذابح ما حدث في قريتي ملوزا وواغرام . ففي ملوزا التي كانت من معاقل مصالي الحاج قتل أكثر من ٣٠٠ رجل واتهمت جماعة مصالي الحاج والجيش الفرنسي على السواء جبهة التحرير بهذه العملية . ثم عمد الجيش إلى تدبير آخر اذ رحّل قطاعات من الشعب بكاملها من مراكز اقامتها الاصلية حتى يقطع صلاتها بعصابات جبهة التحرير الجزائرية . وبحلول عام ١٩٥٩ كان قد أكره نحو مليوني عربي أي ما يقرب من نحو ربع مجموع السكان على هجر قراهم لكي يقطعوا صلاتهم بأفراد

العصابات الذين كانوا في الواقع أبناء وأشقاء اولئك المنقولين بالذات . وفي غضون ذلك حمل الخوف واليأس الفرنسيين على شن غارات قتل جماعي على القرى التي يشتبه بأنها تؤوي رجال العصابات . وهكذا بلغ العنف الفاشيستي الذي لجأ اليه البيض أسوأ درجاته وأحط دركاته .

وبدأت سلسلة جديدة من عمليات التعذيب في مراكز الشرطة والمعتقلات العسكرية وأطلت من جحورها كما أطلت الجرذان من مجاري المياه القذرة في رواية كامو « الطاعون » . ومن الطبيعي ان الكثرة الساحقة من الضحايا كانت من العرب ولكن الاوروبيين الذين كانوا يساعدون الجزائريين في حركتهم التحررية تعرضوا للاضطهاد أيضاً . ففي احدى حملات التعذيب عمد رجال المظلات إلى خنق موريس أودين استاذ الرياضيات الفرنسي بكلية العلوم في الجامعة الجزائرية والذي كان يبلغ من العمر ٢٥ عاماً فقط .وشرح هنري اليغ وهو فرنسي جزائري شيوعي ما تعرض له من ألوان التعذيب في كتابه « المشكلة » الصادر عام ١٩٥٨ . وهكذا لم يكن هناك أحد لا تطاله أيدي رجال المظلات . وأحرق رجال الامن لسان محمد صفتا المسجل في المحكمة الشرعية الاسلامية بالجزائر .

وأتهمت الفتاة جميلة بوباشا بوضع قنبلة في أحد مطاعم جامعة الجزائر فملأ المظليون جوفها بماءالصابون وأولجوا فيها قنينة من الزجاج . اما والدها البالغ من العمر ٧١ عاماً فقد عرضوه لتيار كهربائي قوي وهم يتشفون بعذابه ويقولون : « لا انسانية مع العرب » . أما الطلبة الجزائريون في باريس فقد كانوا يطوقون بين الحين والآخر وينقلون إلى مراكز الشرطة حيث يتعرضون لالوان العذاب الأليم . ولم يكن يجرؤ إلا القليلون من المحامين الشجعان على الدفاع عن المعتقلين الجزائريين . وكان المحامون الذين يقدمون على ذلك يتعرضون للارهاب بينما كانت قيادة الجيش العليا ووزير الحرب الفرنسي في باريس يحولان دون التحقيق في الشكاوى المتعلقة بهذا الموضوع . أما لجان التحقيق التي كانت تشكلها الحكومة الفرنسية بين وقت وآخر فلم يكن لها معنى على الاطلاق في نظر العرب . فبعد سبعة اعوام من الفظائع المتواصلة لم تجر ادانة فرنسي واحد بتهمة قتل أي جزائري أمام أية محكمة فرنسية .

وكان فانون يراقب ذلك كله . وفي هذه المراقبة يكمن سر تحوله من فانون الشاب الى فانون الناضج . لقد كانت المبادىء الخلقية للطب تلك المبادىء التي تشربها فانون في فرنسا متوهماً

ان جميع الاطباء الفرنسيين يحترمونها هذه المبادىء كان يداس عليها في الجزائر على نطاق جماعي جماهيري . فأين ، في خضم الحرب الاستعمارية ، تجعل «الحضارة» لقيمها اثراً ملموساً ؟ ان سيمون دي بوفوار والمحامي التونسي جيزيل حليمي يؤيدان البينات التي قدمها فانون بأن الاطباء الفرنسيين اسهموا في عمليات التعذيب وأنكروا فيما بعد علمهم بذلك . وأيد هنري اليغ الاتهامات التي أعلنها فانون بأن بعض الأطباء اشرفوا على عمليات حقن المعتقلين الجزائريين بما يسمى « مصل الحقيقة » المعروف بأن له اثراً يشبه اثر التنويم المغناطيسي ولكنه يعرض من يخضع له لعاهة دائمة في كيانه وشخصيته . وكان أطباء الجسد والاطباء النفسانيون يتعاونون معاً على السيطرة على الصدمة التي يتعرض لها المعتقل . « عندما أبحث عن الانسان الناشيء، عن المثالي الاوروبي ، لا أجد إلا سلسلة من اعمال انكار الانسان وفيضاً من عمليات القتل »[1] .

ويشير فانون الى عدد من الحالات ليشرح الآثار العصبية والعقلية التي تخلقها عمليات التعذيب في منفذي العملية وضحاياها، على السواء . ومن الأمثلة التي اوردها فانون على ذلك حالة مفتش بوليس اوروبي مارس عمليات التعذيب على نطاق واسع فاصبح

العنف والاستبداد صفتين ملازمتين له على نحو مطرد الزيادة وذلك في جميع علاقاته الشخصية حتى وصل به الأمرالى الاعتداء بالضرب على زوجته واولاده . وعند هذه النقطة هرع الرجل الى المستشفى طلباً للمساعدة فوضع تحت اشراف فانون الذي يصف ذلك فيقول « طلب مني دون مواربة ان أساعده على مواصلة أعمال التعذيب ضد الوطنيين الجزائريين دون ان يتعرض لوخز الضمير ودون ان تنشأ لديه أية مشكلات بشأن التصرف، وان يظل أثناء ذلك رابط الجأش [٢] » . ويقول سارتر في مقدمته لكتاب اليغ « السؤال » : « انه الجلاد ، ذلك الذي يصبح مثل سيسيفس . فهو اذا وضع السؤال مرة كان لا بد له من الاستمرار الى الابد في إعادة السؤال » .

ويرى فانون ان الاختلاف في حالات المرض النفسي يكون طبقاً لاختلاف طرق التعذيب التي يتعرض لها المريض (وان كان لا بد من الاشارة الى ان فانون يؤكد ذلك دون ان يبرهن عليه) . فاولئك الذين كانوا ضحايا الأساليب المتبعة في المعاقبة بسبب « التمييز العنصري » مثل اسلوب ملء جوف الضحية بالماء المشبع بالصابون يشكلون فئة معينة في حين ان الضحايا الذين يخضعون للتعذيب الكهربائي يشكلون فئة أخرى . أما

ضحايا إيلاج القناني الزجاجية فهم فئة اخرى، خاصة وقل مثل ذلك في ضحايا التعذيب « الساكن » (يتعرض الضحية للضرب كلما أبدى أية حركة) . ويدعي فانون أن اولئك الوطنيين الذين كانت لديهم بالفعل معلومات لم تكن تتاح لهم الفرصة لدخول المستشفيات على الاطلاق . أما الذين كانوا يصابون بشتى الامراض النفسانية فهم اولئك الذين لم تكن لديهم في الواقع معلومات يدلون بها للسلطات . والحقيقة ان الشك بدأ في النهاية يخامر فانون بأن الغاية من عمليات التعذيب هي الوقوف على معلومات بل أصبح يعتقد ان الدافع لتلك العمليات لم يكن إلا تعبيراً عن السادية العنصرية وكأن الأمر احدى ضرورات ومستلزمات العالم الاستعماري .

فكثيراً ما يحدث ان الانسان يحارب فكرة ما ثم يعود الى الإيمان بها ايماناً تاماً . وكان سيزير، وكذلك فانون ، قد شبّه الاستعمار بالهتلرية . وكان فانون يعلم ان الفرنسيين في الجزائر انما كانوا ينتهجون نفس الاساليب التي طبقوها في الهند الصينية وتلك التي طبقها البريطانيون في كينيا مع ادخال تعديلات تتناسب مع الظروف المحلية السائدة . فبحلول عام ١٩٥٥ كان هنالك ٤٨،٠٠٠ افريقي معتقل دون محاكمة في كينيا . وكان

دنكان مكفرسون مساعد مدير الشرطة قدأدلى بشهادة اعترف فيها بأنه وجد حالة بعض المعتقلات أسوأ من حالة المعتقلات التي عاش فيها أربعة اعوام ونصف العام أسيراً لدى اليابانيين (٣). وبلغت فضائح التعذيب المنظم الذي تمارسه السلطات ذروتها في فضيحة الاحد عشر رجلاً الذين لاقوا حتفهم عام ١٩٥٩ تحت الضرب في معسكر « هولا » . وكان فانون يرى في كل فضيحة تهز باريس ولندن ظاهرة تنم عن رفض المفكرين الاوروبيين تشخيص الاستعمار كما هو بالفعل والواقع .

ولكن ألم يكن هناك الكثيرون من الاوروبيين ذوي النيات الطيبة في الجزائر ؟ ألم يكن فيها ديمقراطيون وراديكاليون من أصدقاء الشعب الجزائري ؟

على اننا ينبغي ان نتذكر ان فانون أصبح يعمل بعد عام ١٩٥٦ في تونس لحساب الصحف الجزائرية الحرة وخاصة صحيفة « المجاهد » الناطقة بلسان جبهة التحرير الجزائرية . ومن ثم لا بد من التأكيد على ان غالبية المقالات التي كتبها خلال الحرب كانت مقالات كتبها جزائري بالتبني موجهة الى الشعب الجزائري . ففي كانون الاول ١٩٥٧ كتب فانون مقالاً برر فيه

اقدام كمين من رجال جبهة التحرير الجزائرية على ذبح عشرة مدنيين في « ساكامودي » وذلك بحجة انه في ظل الاستعمار الفرنسي ليس في امكان الفرنسي ان يكون محايداً أو بريئاً . فكل فرنسي في الجزائر انما تنطوي نفسه على ازدراء الجزائري الاصلي والرغبة في ظلمه والسيطرة عليه ... وكل فرنسي في الجزائر هو في الحقيقة جندي من جنود الأعداء . وما دامت الجزائرغير مستقلة لا بد من تقبل هذهالنتيجة المنطقية . ومضى يزيد الطين بلة فيقول : « ان على كل فرنسي في الجزائر ان يتصرف كرجال التعذيب»[٤] ولكن موقف فانون هنا ،وهو يتحدث إلى جمهور جزائري ، يتناقض مع موقفه في مقال نشره في صحيفة سارتر الباريسية « ليه تا مودرن » عام ١٩٥٩ اذ قال هنا : « لطالما ادعى البعض أن جبهة التحرير الجزائرية لا تميز بين مختلف أفراد المجتمع الاوروبي في الجزائر . ولكن اولئك الذين يوجهون للجزائريين أمثال هذه التهم لا يأخذون في حسابهم حقيقتين : « الأولى الحقيقة السياسية التي حددتها الجبهة تجاه الاوروبيين الجزائريين والثانية العون الدائم المستمر الذي قدمه لوحداتنا وخلايانا السياسية[٥]مئات الاوروبيين منرجال ونساء. فكم من طبيب اوروبيقدم المساعدات للوحدات العسكرية لجبهة

التحرير وكم من فلاح فرنسي عادي سمح لرجال الكوماندوس الجزائريين بإخفاء الأسلحة في مخازنه. (هنا يغفل فانون ببساطة عنصر الارهـــاب) ثم يعود إلى تأكيد هــذا الادعاء مرة أخرى في كتابه « المعذبون في الأرض » فيقول : « لقد تحطمت لدى كلا الجانبين حواجز الدم والتمييز العنصري » . ولكن هنا نجد الورطـــة . ذلك اننا إذا نظرنا إلى الوضع الاستعماري نظرة موضوعية شاملة بوصفه حكماً عسكرياً اجنبياً نجد ان الشعب الخـاضع للاستعمار لا يستطيع ان يميز بين فئـات المستعمرين ويسمح بالتالي بأن تقترن خطواته بالتردد وان توهن من عزيمته بعض الحوادث الفردية الطيبة الصادرة عن العنصر الأبيض . فمـا دامت الحرب مستمرة فإن كل عربي هو بيغر توماس .

ولكن ماذا بشأن اليسار الفرنسي ؟ ماذا بشأن روح عام ١٧٨٩ وتقاليد اليعقوبيين الراديكاليين العظيمة ؟ مع العلم بأن نتخابات عام ١٩٥٦ أسفرت عن فوز الائتلاف اليساري الذي سبق له ان وعد بإحلال السلام في الجزائر . والجواب بسيط . قد خان اليسار عهده الأمر الذي جعل فانون يسخر من هـذا سار الذي لم يصدر عنه صوت واحد يعطف على استقلال

الجزائر . أما فروع تلك الأحزاب اليسارية المؤتلفة في الجزائر فلم تزد ، كما قال فانون ، على ترداد شعارات قياداتها المركزية كالببغاوات متجاهلة ان المشكلة الرئيسية هي الاستقلال الوطني قبل أي شيء آخر . ولكن هل يعني ذلك توجيه نفس هـذه الاتهامات إلى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يسانـده خمسة ملايين من العمال والفلاحين الذين يكرسون أنفسهم لحمل رسالة ماركس ولينين المناهضة للاستعمار ؟

وكانت قد نشبت عام ١٩٤٥ اضطرابات في منطقة قسطنطينة الجزائرية . ودعا الحزب الشيوعي إلى معاقبة مثيريها ووقف بقوة في وجه المطالبة باستقلال الجزائر . ولكن الانتباه انتقل بعد ذلك إلى مسرح الهند الصينية والغى الحزب نفسه اعتباراً من عام ١٩٤٩ في مقدمة معارضي الحرب ضـد هوشي منه والفياتمنه . وحيّا زعيم الحزب موريس توريز عمـال أحواض السفن الفرنسيين الذين رفضوا شحن الأسلحة المرسلة إلى الهند الصينية كما ان الحزب كان يشجع أعمال التخريب ضد السكك الحديدية التي تنقل الأسلحة . وأرسل زعيم الحزب إلى القائمين بذلك رسـائل شكر وامتنان وبذلك أصبح الحلف بين العمال

الكادحين والشعوب الخاضعة للاستعمار حقيقة واقعة .

وهكذا رفع الحزب شعار السلام في الهند الصينية والحرب الفورية في الجزائر . وأصبحت المفارقة واضحة ، ومرد ذلك إلى ان الثوار في الهند الصينية كانوا شيوعيين تؤيدهم كلتا دولتي روسيا والصين تأييداً قوياً . ولم ينجم عن حرب الهند الصينية تجنيد اجباري ومن ثم لم يمتد الموت فيها ليشمل الطبقة الكادحة أضف إلى ذلك ان الهند الصينية بعيدة في حين ان الجزائر قريبة جداً من فرنسا . وكان يعيش في فرنسا ويعمل عدد كبير من العمال العرب الذين يعرفهم العمال الفرنسيون ويزورونهم . ومن الألفاظ الفرنسية القديمة المستخدمة للدلالة على العمال الذين يُستأجرون ليحلوا محل العمال المضربين كلمة « بدوي » . ثم ان أفقر العائلات الفرنسية لها أقرباء مستوطنون في الجزائر يكدحون مثلهم ولا « يستغلون أحداً » . ولقد عبر عن ذلك الكاتب الالمعي البير كامو فقال : ان عائلتي تتألف من أفراد فقراء لم يستغلوا أحداً .

وهكذا اضطر الحزب الى الوقوف موقفاً متردداً مراوغاً داعياً الى « السلام » دون أن يطالب بالاستقلال . وفي شهرآذار

١٩٥٦ اقترع نواب الحزب الى جانب منح الحكومة سلطـــات خاصة تمكنها عمليـــاً من التصرف بالجزائر كما تشاء . وهنا بلغ الاستياء والغضب بإيمي سيزير حداً دفعه الى الاستقالة من الحزب، وكتب الى توريز يقول : « ان ما أريـــده وأرغب فيه هو ان تخدم الماركسية والشيوعية الشعوب الزنجية لا ان تخدم هـذه الشعوب الماركسية والشيوعية » . كذلك دفع هذا الموقف من الحزب الشيوعي بفانون الى النقطة الحساسة نقطـة اللارجوع بالنسبة لأوروبا . وفي عام ١٩٥٧ دعا توريز الى استقلال الجزائر ولكن رد الفعل الديغولي في العام التالي حمل معه تراجعاً آخر انتهى بالتخلي عن هـذه المطالبة . وفي عام ١٩٦٠ رد توريز على الضغط الذي وجهه اليسارغير الشيوعي معلقـــاً على ذلك بأن « مقاطعـة الحرب هي عبارة سخيفـة » وان على الشيوعيين ان يشتركوا في أية حرب مهما كانت رجعية .

ومن الطبيعي ان يكون رد الفعل الاولي لدى فانون مفعماً بالغضب والازدراء . فكانت كل اشارة منه الى جبهة التحرير الجزائرية اشبه ما تكون « بزجاجة مولوتوف » كلامية . ومع ذلك فإنه لم يقف عند هذا الحد بل امتدت سخريته وازدراؤه

لتتناول النخبة من اهل اليسار الفرنسي كلهم . فقد تشتتوا مذعورين أمام تهم الخيانة التي وجهت اليهم وسمحوا لعمليات الارهاب التي كان يشنها الجناح اليميني بقنابله البلاستيكية ان تخيفهم . أما تنديدهم بأعمال التعذيب فلم يكن سببه القلق على الضحايا الجزائريين بل الخوف من ان ينقلب الشباب الفرنسيون الى ساديين ومنحرفين . ولقد خصص جورجس ارنولد كتاباً للحكم بالاعدام على جميلة بوحيرد فهل كان اعدام انسان واحد مما يثير دهشة الجزائريين ؟ وتعيد سيمون دي بوفوار الى الأذهان ان فانون « لم يستطع على الرغم من اعجابه بسارتر ان ينسى انه فرنسي اخذا عليه انه لم يستنكر الجرائم استنكاراً كافياً؟ وكان يعتقد انه كان في وسع سارتر ان يهز الرأي العام لو انه اعلن انه لن يكتب كلمة واحدة جديدة الا بعد ان تنتهي الحرب ولم يكن في وسعنا أن نقنعه بأن الأمر ليس كما يقول » [٦] .

والحقيقة انه كانت هنالك شخصيتان لفانون : الأولى شخصية الإنسان التجريبي الواقعي الذي كان يحث المفكرين الفرنسيين على تبصير الرأي العام الفرنسي بشأن ما تخلفه الحرب الجزائرية من آثار عليه مثل ارتفاع تكاليف المعيشة والضرائب وكبح الحرية السياسية في فرنسا . أما الشخصية الثانية فهي

شخصية الانسان الذي يشجب التعصب الاناني والاجتماعي والذي يريد من اصدقائه الفرنسيين ان يشاطروه مشاعره الشخصية ومفاهيمه ومقاييسه بشأن فظائع الحرب . ولقد كان فانون يعرف التضحيات البطولية التي قدمها اودين واليغ وصديقه الشخصي فرانسيس جينسون الذين شكلوا شبكة مقاومة موالية لجبهة التحرير الجزائرية لم يقض عليها نهائياً حتى عام ١٩٦٠ .

وكان يعرف ان صحافة الجناح اليساري كانت تتعرض باستمرار لمضايقات البوليس وغاراته التفتيشية وان الطلاب كانوا في حالة غليان وان المجندين العسكريين كانوا يتعرضون باستمرار مطرد لدعايات تؤدي الى شل الطاقات العسكرية للجيش الفرنسي. وكان يدرك ايضاً ان توقيع البيان الشهير ، بيان المائة والواحد والعشرين ،يتطلب شجاعة معنوية وجسدية على السواء في تلك الظروف التي كانت فيها منظمة البوليس السري الفرنسية تفرض سيطرتها على البلاد . فقد الزم موقعوه في شهر ايلول ١٩٦٠ انفسهم بمساندة اولئك « الفرنسيين الذين يعتبرون ان من واجبهم ان يقدموا ، باسم الشعب الفرنسي ، المساعدة والحماية للمظلومين الجزائريين» . بيد ان هذا الاستيقاظ الضمائري الذي يدعو الى الاعجاب لم يكن له أثر يذكر في

الحرب. فلقد كان هؤلاء المفكرون معزولين عن الآلة السياسية وبالتالي لم يكن في وسعهم ان يرفعوا عن كاهل الفلاحين الجزائريين الاعباء التي يلقيها الصراع والحرب الدائران . ومع ان فانون كان يعرف ذلك كله إلا انه لم يستطع ان يتقبله . بل أخذ يتجه خطوة فخطوة وشيئاً فشيئاً نحو قطع الرجاء من افرنسا بل من اوروبا كلها والاعتقاد بانه ليس في وسع الشعب الجزائري ان يعتمد على أية جهة سوى نفسه. ولكن الألم وعدم التصديق والغضب كان يرافق كل خطوة يخطوها في هذا لاتجاه . وكانت هنالك حقيقة واحدة فقط واضحة في ذهنه : لئن كتب التاريخ على الفلاح الجزائري ان يلجأ الى العنف فان ذلك فرض عليه هو الآخر .

على اننا ينبغي ان لا نحسب ان هذه الخطوة كانت بالنسبة اليه أمراً مفروغاً منه. ذلك ان كتابه « البشر السوداء والاقنعة البيضاء » هو اشبه ما يكون بنداء الى العقل ومناشدة للتوفيق لا دعوة للحرب. فقد كان فانون طبيباً محترفاً يتصرف من مواقع المسؤولية ومع ذلك كان يؤوي الارهابيين في بيته وفي المستشفى الذي يعمل فيه ويقدم لهم العلاج ويدرب الممرضات العربيات للعمل في الخلايا الارهابية . ففي تلك الأيام الاولى من

الثورة كانت نسبة كبيرة من غارات الارهابيـــين فاشلة لأن الثوار أنفسهم كانوا مذعورين أو غير اكفاء . ولكن فانون ، كما تقول سيمون دي بوفـــوار ، علـّم الفدائيين كيف يسيطرون على أنفسهم عند القاء قنبلة مثلاً و كيف تكون مواقفهم الجسدية والنفسانية عندما يتعرضون للتعذيب . ويؤيد الشهود كلهم انه كان يستفظع العنف والعنف المعاكس والمذابح وأعمال الانتقام الوحشية التي الزم نفسه بتأييدها .

ولعل هذه السمعة هي التي دفعت بفانون ، على سبيل التعويض، إلى اعتبار العنف لا مجرد ضرورة سياسية او الطريقة العملية الوحيدة لرفـع نير الحكم الاستعماري بل كذلك شكلاً من اشكال بعث الحياة اجتماعياً وخلقياً في الشعوب المغلوبـــة على أمرها. فالدم المراق يحول الغبار الاستعماري الى تربة وطنية خصبة .

و كان فانون قد تكهن في كتبه وتعليقاته ومقالاته الصحفية التي كتبها تأييـداً للثورة الجزائريـة بنشوء المشكلات التي طرحت في كتاب« المعذبون في الارض» ففي كتابه «دراسات استعمار ميت » اعتبر ان الصراع المسلح يولد حركة تحرر وتقدم سريعة في التركيب الاجتماعي والذهـني للجزائريين . وضرب

مثلاً على ذلك اجهزة الراديو . فقبـــل الحرب الجزائرية كان راديو الجزائر يمثل في نظر الشعب صوت الثقافة الاستعمارية كما كانت برامجه تخدش مشاعر الأسرة الجزائرية المحترمة ومن ثم لم يكن الا القليلون من الجزائريين الوطنيين يقدمون على ابتياع اجهزة الراديو ولكن بحلول عـــام ١٩٥٦ وظهور راديو صوت الجزائر الحرة ، تهافت الناس على هذه الأجهزة بحيث نفذ جميع المخزون منها في غضون عشرين يوماً فقط. وكلما كانت السلطات تلجأ الى مزيد من التشويش على البث كان الاقبال على سماع صوت الجزائر يزداد ويشتد. وانفجر البنيان المتزمت للأسرة الجزائرية بعد ان أخذ افراد الاسرة وابناؤها ينضمون الى حركة المقاومة وبدأت سلطة الآباء على اسرهم تنهار . وهكذا غدت القضيـة الوطنية مصدراً جديداً للولاء والسلطة يعتبر تسامياً بالعادة القديمة المتمثلة في الولاء المطلق لرب الاسرة .

وفي هذا الخضم ولدت المرأة الجزائرية من جديد . فالنساء العربيات اللاتي اصبحن ينقلن السلاح والقنابل والرسائل بين كتائب جيش التحرير المختلفة ، انطلقن بطبيعة الحال من اسار سجنهن التقليدي. ولاول مرة اصبحت النساء يسافرن منفردات من وهران حتى قسطنطينة أو الجزائر وبالعكس وينزلن في ضيافة

اسر لا علاقة سابقة لهن بها . ولأول مرة اصبحت هؤلاء النسوة يؤوين في بيوتهن المناضلين حتى في غياب ازواجهن كما اصبحن يرتدين الالبسة الاوروبية حيناً والتقليدية حيناً اخر طبقاً لما تقتضيه مصلحة المهام التي يقمن بها . وبدأن بحمل مسؤولية تصرفهن الخاص وتطوير شخصياتهن وعرض وجهات نظرهن الخاصة حتى بحضور اقربائهن من الذكور واخيراً أصبحن يتمتعن بحق اختيار ازواجهن . وكتب فانون يعلق على ذلك فقال « اصبح الزوجان هما الخلية الأساسية للمنزل والنواة الخصبة للشعب وظهر المواطن الصالح والرجل الوطني والزوج العصري في آن معاً [٧] » .

لقد رأينا كيف ان فانون كان ميالاً الى اثارة اتجاه كان يقدره ويشجعه ، ورفعه الى مرتبة حقيقة عامة . فهو هنا يشبه السكان الاصليين لجزر الانتيل الذين تمسكوا بهويتهم السوداء خلال الحرب العالمية الثانية بالسكان الجزائريين الاصليين الذين احرزوا مرتبة اكثر تطوراً في العلاقات الانسانية والجنسية . فقد نكون مشككين بمدى هذا التحرر واقعياً كما ان معالجة فانون للاسرة الجزائرية والمرأة الجزائرية يفتقر الى بعد اجتماعي فهو لا يميز بين الفلاح وابن المدينة الذي ينتمي الى الطبقة البورجوازية

الصغيرة . فصمويل رودي مصيب إذ يقول « ان فانون ربط كفاح الجزائر في سبيل الاستقلال بثورة اجتماعية دون ان يستخدم عبارات طبقية [٨] ». فمن الصحيح بالطبع ان فانون كان متلهفاً لاسباب تكتيكية ودعاوية على تعزيز صورة شعب موحد كلياً ويقلل من التركيز على الخلافات الداخليـــة بين سكان المدن والارياف ، بين الفلاحين والبورجوازيين وهو ما يبحثه بتفصيل واف في كتابه « المعذبون في الأرض » . وحتى لو اخذنا هذا العامل بعين الاعتبار فان انطباعاً قوياً يظل بان فانون بقي تحررياً متطرفاً حتى العام ١٩٥٩ – ١٩٦٠ . أمـــا ارتباطه الكامل بالاشتراكية والثورة الاشتراكية فقد جاء فيما بعد منبثقاً من ملاحظاته في ازالة الاستعمار جنوبي الصحراء في افريقيا السوداء. وكان فانون قد وصف الاستعمار في شهر كانون الاول ١٩٥٧ بانه « غزو منطقة وظلم شعب ما . هـذا كل ما في الامر » . ولكنه ادرك بحلول عام ١٩٦٠ ان الاستعمار يشمل ايضاً تشريب المجتمع الوطني الاصلي ولاسيما مناطق المدن منه بالنظام الاستعماري وقِيَمه . ونتيجة لذلك فان الاستقلال الرسمي الشكلي وحـــده لا يعني الزوال الحقيقي للاستعمار .

هل هو اذن تحرري متطرف ؟ من الواضح ان اطـلاق مثل

هذا الوصف عليه لا يكون دقيقاً كل الدقة. لقد اصبح منذ حين ثوريا يعقوبياً ملتزماً باللجوء إلى العنف وكان مفكراً متعاطفاً مع المنهجية الديالكتيكية للماركسية. وهو الان يعتقد قبل أي شيء آخر ان الحرية الحقيقية لا يمكن ان تعطى هبة بل لا بد من انتزاعها انتزاعاً. وفي ذلك ما يوضح مقولته بانه من الضروري مقاومة المحاولات الفرنسية الرامية الى تحديث الاسرة الجزائرية وازالة حجاب المرأة والغاء سجنها المنزلي. ففي رأيه ان« المرأة التي ترى دون ان تُرى تثبط عزيمة المستعمر لانها تلغي بذلك امكان التعامل معه ». والحقيقة ان موقف فانون من قضايا المرأة هو اقرب الى التفكير الغربي المتحرر منه الى المواقف التقليدية للمجتمع العربي أو الافريقي، ولكنه يرفض النظرة التجريبية الضيقة التي تنطوي على الاعتقاد بان الشيء الحسن يبقى حسناً سواء جاء بطريق العطاء والهبة أو بطريق الاخذ والانتزاع. على انه من الممكن الاعتراض بان فانون يعرب في بعض الحالات عن اعتقاده بان الدولة الاستعمارية «تحترم» وتساند ثقافة السكان الاصليين بقصد تكبيلهم وعرقلة تقدمهم من جهة وتهدئتهم من جهة اخرى، في حين انه يشجب في حالات اخرى صاحب العمل الفرنسي الذي يدعو مستخدمه الجزائري مع زوجته لاحدى

المناسبات الاجتماعية معتبراً ذلك نوعاً من الاغتصاب المعنوي . والجواب عن ذلك هنا (وان لم يذكره فانون صراحة) هو ان الوسائل الاستعمارية تختلف وتتفاوت . فاستراتيجية الحكم في مستعمرات بريطانيا الافريقية السوداء تقوم بنوع خاص على اساس الحكم بصورة غــير مباشرة واستغلال اشكال الحكم التقليدية على نحو يصبح معه رؤساء القبائل مرتبطين بنظام الحكم الاستعماري ومعتمدين عليه للحفاظ على نفوذهم وسلطتهم بالاضافة الى استغلال الخلافات بين سكان المدن والارياف . فالاحتواء السياسي الكلي يبذر بذور الاحتواء الثقافي . واذن فان فانون مصيب من هذه الزاوية : فدعوة صاحب العمل الفرنسي لمستخدمه العربي وزوجته تعني ضمناً فرنسة الجزائريين .

ويوضح فانون سيكولوجية مقاومة « التقدم » ضمن الاطار الاستعماري في ابحاثه وممارساته الطبية . فزيارة الطبيب الابيض للجزائري يسبقها قيام البوليس بتجميع السكان كلهم . ثم ان الكثيرين من الاطباء البيض يملكون أيضاً مساحات من بساتين الكرمة أو حقول الارز ، انهم استعماريون حقيقيون بل هم جزء لا يتجزأ من النظام الذي يستند إلى قوة البوليس والجيش .وفي هذا الصدد يشير الصحافي الأرجنتيني ادولفو جيللي إلى انه سأل

مرة رجلا بوليفياً فقيراً من عمال المناجم عن السبب الذي منعه من ارسال ابنه الى مركز الخدمات الصحية الامريكي المجاور ليجري تطعيمه فرد على الفور « من يدري أي نوع من المطاعم القذرة تحققنا بها هؤلاء الامريكيون لكي يحولوا الشعب البوليفي الى شعب يتصف بالبلاهة والغباء ليسهل استغلاله [٩]».

وتساءل فانون عن مستقبل الجزائر « بعد الحرب » فقال انه ليس في الامكان بعد الآن ابقاء التفاوت بين الشعب وحكامه. ولكنه كان يعرف ، وهو الذي عاش في تونس قريباً من مركز الحكومة الجزائرية الموقتة في المنفى ، الكثير عن الخلافات بين الاجنحة المختلفة داخل الحركة الوطنية الجزائرية ومع ذلك لم يبحث هذا الموضوع . فمن المعروف انه كان شخصياً من المقربين من بن خدّة وسعد دهلب ، ولكن الجزائر لم تكد تظفر باستقلالها في تموز ١٩٦٢ حتى قام بن بيلا بمساندة العقيد هواري بومدين ووحداته العسكرية بتجريد بن خدة ، من السلطة وابعاده عنها. وقدمت أثر ذلك قائمة واحدة من المرشحين للمجلس الوطني ليجري الاقتراع عليها مجتمعة دون منافسة. فقد اعلن بن بيلا ان الديمقراطية رفاهية ليس في وسع الجزائر ان تتحملها . وصدر بعد ذلك دستور عام ١٩٦٣ الذي اسبغ

الشرعية على نظام حكم الحزب الواحد . وعلى الرغم من التأميمات والمصادرات على نطاق واسع فقد ظلت الحكومات الجزائرية المتعاقبة تتعاون مع فرنسا تعاوناً وثيقاً ناقلة عنها الكثير مما كانت قد اقامته من انظمة بيروقراطية وتربوية وتكتيكية في الجزائر . غير انه في عام ١٩٦٥ قام بومدين بمساعدة الجيش بازاحة بن بيلا من مركز السلطة .

وكان فانون ينادي بان رسالة الصراع المسلح هي اعادة بناء البلاد وبعثها . ولقد قدرت جبهة التحرير الجزائرية مجموع ضحايا الحرب شاملاً ذلك الموت جوعاً بأكثر من مليون نسمة من بين مجموع عدد السكان البالغ حينذاك نحو ٩ ملايين نسمة . والمعروف ان اكثرية السكان الاوروبيين فروا من البلاد . وهكذا نجد انه بحلول عام ١٩٦٢ اصيبت الصناعة الجزائرية بالشلل وكان عدد العمال العاطلين عن العمل يبلغ نحو مليوني نسمة كما كان هنالك نحو اربعة ملايين نسمة آخرين ليس لديهم ما يقيم الأود . وفي ظروف كهذه لم يكن في وسع الجزائر إلا ان تبقى معتمدة على المساعدات الاقتصادية والفنية التي تتلقاها من فرنسا وان تسمح لها ، فوق ذلك ، بمواصلة تجاربها النووية في الصحراء . ومن المعروف ان فانون كان يتمتع باحترام بالغ في اوساط المفكرين الجزائريين . ويقال إن بن بيلا وبومدين كانا مجرد مرددين لآرائه في الروح الثورية الكامنة لدى الفلاحين .

ولقد اطلقت الحكومة الجزائرية اسمه على أحد الشوارع الكبرى واحدى المدارس الثانوية الجزائرية. ولكن الفلاحين الجزائريين تفرقوا مرة اخرى بعد النصر وعادوا الى طرق الزراعة الفردية على نطاق صغير والى الصراع الازلي الابدي مع التربة لانتزاع لقمة العيش منها .

٥ ـ جزر الانتيل وأفريقيا والعالم الثالث

مرت جزر البحر الكاريبي جميعها في أُطُر مشتركة من التدخل التاريخي في شؤونها الداخلية : من غزو واستعمار وابادة شعوبها الاصلية واستيراد العبيد من افريقيا الغربية للعمل في حقول السكر والبن فيها. وكان الرق قد الغي في الامبراطورية الفرنسية عام ١٧٩٤ ثم عادت الدولة فاباحته في عهد نابليون ولكنها الغته نهائياً بعد الثورة الثانية عام ١٨٤٨ . اما في بريطانيا فقد الغى البرلمان الرق نهائياً عام ١٨٣٤ . ولكن كما ان تحرير الاقنان الروس عام ١٨٦١ لم يسفر عن تحرير اقتصادي حقيقي كذلك ظل فلاحو جزر الانتيل ينتجون قصب السكر بكدهم وعرقهم ليعود ربحه على ملاك الارض . وفي عام ١٩٥٨ قام اندريه مالرو برحلة عبر المناطق الفقيرة من جزر الانتيل. علق على مشاهداته بعد ذلك فقال انه على الرغم من ان

مطالب الوطنيين ليست في بعض الاحيان معقولة فان لهم ملء الحق بان لا يكونوا معقولين .

وكان فانون يحس بالاسف لانه لم يكن يحارب في سبيل تحرير ارض وطنه . وكان قد قال لسارتر وسيمون دي بوفوار « قبل كل شيء ، لست اريد ان أصبح ثورياً محترفاً [1] » . وفي شهر كانون الثاني ١٩٥٨ استعرض بلهفة الامكانات السياسية لجزر بحر الكاريبي . وكان يرى اقامة دولة فيدرالية من هذه الجزر كلها ولكن العقبات في وجه ذلك كانت كثيرة . فكان هذه الجزر ذوو لغات وثقافات مختلفة (بريطانية وفرنسية واسبانية) كما ان مستويات التطور والتقدم السياسي فيها متفاوتة فجمايكا وبريادوسى وترنداد كانت على عتبة اقامة اتحاد واستقلال . وكان الزعماء السود في الجزر التابعة لبريطانيا مثل نورمان مانلي في جمايكا واريك ويليامز في ترنداد ، اقرب الى الديمقرطية الاشتراكية منهم الى الماركسية . ومع ان الحركة الماركسية التي كان يقودها في غيانا البريطانية شدّى جاغان كانت تشكل املاً معقولاً إلا أن جهود السياسيين السود والبيض على السواء تضافرت لحصره والحد من نشاطه وفاعليته . فكاسترو وجيفارا لم يكونا قد استوليا على زمام الحكم في هافانا بعد ومن ثم فان

فانون لم يشر إليها. اما الجزر التابعة لفرنسافقد ظل المزارعون من اصحاب الاملاك فيها اقوياء وظلت اجور العمال منخفضة وتأخر وضع تشريعات للحماية الاجتماعية وكانت الانتخابات خاضعة جزئياً للتلاعب والتزييف . واما النواب الستة الذين كانوا يمثلون جزر الانتيل فقد ابتلعهم مجلس النواب في باريس وضاعوا فيه . ولقد وصف سيزير هذه الحالة فقال ان جزر الانتيل اصبحت جزءاً من فرنسا مع بقائها تعاني من الفقر المدقع .

وشهد هذا العام نفسه، عام ١٩٥٨، انهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة واستيلاء ديغول على زمام السلطة في باريس . وسرعان ما قرر ديغول احباط اية احتمالات لامتداد الثورة إلى أجزاء أخرى من الامبراطورية الفرنسية غير الجزائر ولا سيما في المناطق السوداء منها . فاجرى استفتاء خيّر فيه المستعمرات بين الاستقلال الفوري او الانضمام التام الى فرنسا او انتهاج واحد من شكلين من اشكال الارتباط بفرنسا ضمن مجتمع فرنسي جديد .

وفي ذلك الاستفتاء قال سكان الانتيل « نعم » للانضمام

التام . فاوفد ديغول مالرو الروائي واليساري السابق وأحـــد ابطال الحرب الاهليـة الاسبانية الذي اصبـح فيما بعد وزيراً في عهد الجمهورية الفرنسية الخامسة وذلك لكي يربط الانتيل وغيانا بفرنسا . وكان هذا هو مالرو ، بأفكاره الجديدة عن الانسان الغربي والحضارة الغربية ، الذي تحدث عنـــه فانون بسخرية وازدراء .

ومهما يكن من أمر فقد أخذ مالرو يرتحل من قرية الى قرية وهو يتلقى اكاليـل الزهور التي ينقلها الى اقــدام الجمهوريـة الجديدة . وفي بلدة « فورت دي فرانس » استقبله رئيس البلدية الذي كان ايميه سيزير نفسه بهـــذه الكلمـات : « انني احيي في شخصك الشعب الفرنسي العظيم الذي تشدنا اليه روابط عاطفية وثيقة [٢] » .

وعمد مالرو بعد ذلك الى تذكير الناس باولئك الابطال من شعب المارتنيك الذين خروا صرعى دفاعاً عن فرنسا في حربين عالميتين . اما فانون فقد اشار مرة متهكماً الى « اولئك الزنوج الذين حاربوا دفاعاً عن حرية فرنسا او عن الحضارة البريطانية » . ولنعد الى الجمهور الذي كان يصغي الى خطاب مالرو فقـد بدأ

بعد نهاية الخطاب بالقاء النشيد القومي الفرنسي، نشيد المارسييز. وهنا أخذ مالرو يسخر ، بعباراته المجازية التي تتأرجح بين اليمين واليسار، بالافكار التي يمثلها فانون وتلك التي كان يدافع عنها سيزير فقال ان النشيد كان صيحة الحرية السوداء مقرونة بالآمال الثورية والدعوة الى الأخوة الحقيقية (٣).

وبعد ذلك أخذ الجمهور يصيح : يحيا ديغول ، يحيا سيزير ثم بدأت حفلة رقص عام وضع الناس فيها على وجوههم اقنعة تمثل الشيطان . ويقول فانون ان امثال هذه الطقوس تعبر عن العواطف المكبوتة لشعب مظلوم . اما مالرو فقد فسرها على نحو أوسع بكثير فقال انها مهرجان يعبر عن السعادة المطلقة الناجمة عن « انقاذ البشرية لنفسها من نفسها » . وكان فانون قد وصف في كتابه « بشرة سوداء واقنعة بيضاء » قدرة سيزير على استغلال براعته في اللغة الفرنسية واتقانه لها في اثارة امواج من الحماسة في بلدة فورت دي فرانس . ولم يتغير منذ ذلك الحين شيء سوى ان هذا الخطيب المفوّه قد وضع مواهبه في خدمة « الشعب الفرنسي العظيم » بدلاً من وضعها في خدمة « الكونغو التي تضج بالغابات والانهار » .

وفي مقال كتبة فانون بعد الاستفتاء مباشرة كان رد الفعل

لديه على نتيجة الاستفتاء هو الاعراب عن اشد الاستياء . وكره فانون ان يعتبر سيزير خائناً ولكنه انذره قائلاً انه لا يحق لاي زعيم أن يتاجر باحترام الجماهير ومحبتها له عندما يتناول الأمر استقلال البلاد بالذات . وبعد عامين اعرب بحماس عن ترحيبه البالغ بثورة نشبت في المارينيك ودامت ثلاثة ايام · ففي شهر كانون الاول ١٩٥٩ قطع الثوار خطوط المواصلات واحتلوا بلدة فورت دي فرانس مدة تزيد على ست ساعات . وكان كاسترو قد استولى في غضون ذلك على زمام الحكم في كوبا . فعاد فانون مرة اخرى الى منطقة البحر الكاريبي مشبعاً بالتفاؤل . ولكن جزر الانتيل لا تزال حتى اليوم جزءاً من فرنسا .

أما في افريقيا السوداء التي بدأ فانون يلقي نحوها نظرة متعاطفة فقد كانت حصيلة الاستفتاء مماثلة لما جرى في جميع الانحاء الاخرى من الامبراطورية الفرنسية باستثناء غينيا المستعمرة الوحيدة التي آثرت الاستقلال . ويمكن القول بصورة عامة بان تكتيكات قانون كادر اثبتت انها مؤثرة فعالة. وكان هذا القانون قد صدر في عام ١٩٥٦ ثم عدّل عام ١٩٥٧ وكان يقضي بمنح حق الانتخاب لجميع السكان في جميع انحاء الامبراطورية الفرنسية كما يقضي بمنح استقلال ذاتي للحكومات الافريقية يتناول الشؤون

المحلية . ولكن فانون شجب هذا القانون كما شجبته مؤتمرات الراديكاليين الافريقيين التي عُقـــدت في باماكو وكوتونو وكذلك شجعته جبهة التحرير الجزائرية . وقد اثمرت جهود تلك المؤتمرات بالفعـل وحققت الاغراض التي من اجلهـــا عقدت . فقـــد اصبح السياسيون الافريقيون يتمتعـون بالسلطة في بلادهم الخاصـــة كما اصبح في وسعهم في الوقت نفسه ان يعتمدوا على المساعدات والاستثارات الفرنسية . ومن المسلم به ان بعض هؤلاء السياسيين كان اكثر تساهـلاً من البعض الاخر.وكان اشد هؤلاء تفاهة في رأي فانون هو هوفيت بوانيه من ساحل العاج.وكان هذا السياسي الزنجي يكاديكون عضواً دائمـــاً في جميع الوزارات وكان من المتمسكين بنظرية ابقاء الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسـا . أما سنغور فقد كان فانون يعتبره بطلاً . ومع ذلك ففي ظل زعامــة سنغور اقترع ٩٧ في المائة من سكان السنغال إلى جانب الانضمام إلى فرنسا . وكان سنغور يتباهى بتعيين الاوروبيين في وظائف ادارية كبيرة في بلاده.ولقد شكا فانون من ذلك بمرارة ولكن الخيانة كانت قديمة راسخة في صفوف السياسيين السنغاليين. فغبرييل بلفرين احد قدماء السنغال المولّدين ومن زعماء الثورة المناهضة للفرنسيين التي نشبت عام ١٨٠٢ أصبح بحلول عام ١٨٢٣ رئيس بلدية مدينة

سانت لويس بناء على أمر الحكومة الفرنسية . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمـان أي في عام ١٩١٤ انتخب الزنجي الراديكالي بليز دياني لتمثيل شعبه في مجلس النواب في باريس ولكنه بحلول عام ١٩٢١ أصبح في صفوف المدافعين عن الامبراطورية الفرنسية في وجه منتقديها في مؤتمر الوحدة الافريقية . وبحلول عام ١٩٣٠ اوفدته حكومة تارديو الرجعية الى مؤتمر العمل الدولي للدفاع عن موقف الحكومة الفرنسية من اعمال السخرة . وكما كان بليز دياني يعيش في دكار حياة ملؤهـا الرفاهية ويقيم في منزل كبير قدمه له بنك افريقيا الغربيـة كذلك كان شأن سنغور من بعده .

على ان المجتمع الفرنسي المتجدد الذى بناه ديغول قـد لقي حتفه بحلول عام ١٩٦٠ فلم يكد يصل ذلك العام الى نهايته حتى كانت جميـع المستعمرات الفرنسية في افريقيا الغربية قد ظفرت بالاستقلال . ولكن فانون ادرك سريعاً ان بلسم الاستقلال لم يحل بحد ذاته جميـع المشكلات الافريقية . وتحدث عن فكرة الوحدة الافريقية وعن تخاذل الكثيرين من انصارها . وفي شهر ايلول انهار ايضاً اتحاد مالي (كان يضم السنغال والسودان الفرنسي)

وكانت داهومي وفولتا العليا قد انسحبتا من قبل. ومن الطبيعي ان العداء كان مستحكماً بين هوفيت بوانيه المحافظ من ساحل العاج وبين مالي (السودان الفرنسي سابقاً) الراديكالية . وفي حين ان غانا وغينيا ومالي شددت على التعاون السياسي فيما بينها فان ليبريا ونيجيريا كانتا تؤثران التعاون على صعيد اقتصادي . اما الجمهورية العربية المتحدة فقد كانت تتحدث عن التعاون الثقافي . ومع ذلك فقد كانت النزعة الاقليمية القبلية والشكوك هي السائدة . وكان كل فريق يحاول حماية نصيبه الخاص من « الكلا » . ووسط هذه التناقضات وصل فانون عام ١٩٦٠ الى غانا ليشغل فيها منصب سفير الحكومة الجزائرية الموقتة . وشهد فانون عن كثب بعض المناورات والاحابيل الدنيئة فاستنتج من ذلك كله ان الاقطار التي توصلت الى الاستقلال بالطرق السلمية السياسية وقعت في قبضة طبقة ورجوازية لا تقل بورجوازية وشوفينية عن الطبقة لبورجوازية الفرنسية التي كانت قائمة في عهد الثورة الكبرى. جاء رفض افريقيا السوداء توحيد جهودها لاتخاذ جراء عسكري ضد افريقيا الجنوبية البيضاء ليعمق فيبة امله .

ولقد نقله ذلك الى المرحلة الثالثـــة والأخـيرة من تطوره كفيلسوف اجتماعي . ففي المرحــلة الاولى حمل على التحــيز والغموض والارباك ، وفي المرحلة الثانيــة حول نار هجومـه الى الاستعمار نفسه . امـــا في المرحلة الثالثة فقـد ادرك ان ازالة الاستعمار لا يمكن ان تكـــون ثورية اصيلة إلا اذا اقترنت باشتراكية صحيحة اصيلة . وفي الوقت نفسه لم يعد التهديـــد الخارجي ، على الاقـــل في افريقيا الغربية ، يتمثـل في الحكم الاستعماري المباشر بل أصبح العدو رقم «١» هنا هو الاستعمار الأذكى ، الاستعمار الجديد . وألقى فانون بأنظاره على العالم بأسره . انه ليس شيوعياً وليس ماركسياً ملتزماً . ولكنه كان يؤمن بأن الكتلة السوفييتيــة قدمت من المساعدات الى العالم الثالث اكثر مما قدمه الغرب ويعتبر الفظاظة التي ابداهـــا خروشوف داخل اروقـــة الامم المتحـــدة وظهور كاسترو فيها باللباس العسكري عـام ١٩٦٠ ، عملاً مشروعاً . امـا عن الصين فلم يتحدث إلا قليلاً جـداً اذ لم يكن الخلاف الكبير بين الصين وروسيا قد ظهر بعد الى العلن ظهوراً تاماً . وأما الولايات المتحدة فقـــد كان موقفه منها مقترناً بالعداء التام الدائم . لقد كان يعرف كل شيء عن دور جنود البحر

الامريكيين في امريكا اللاتينية . فكتب في عام ١٩٦١ يقول « لقد استولى كاسترو على زمام الحكم في كوبا ثم سلمه للشعب[٤]» .
ومن اجل ذلك عكفت الولايات المتحدة على تنظيم فرق للثورة المعاكسة . وكان الدولار القوي يستغل بشراهة آبار النفط في الشرق الاوسط ومناجم بيرو والكونغو والمزارع التي تمتلكها شركات «يونايتد فروت» و «فايرستون» وغيرها . وكان فانون يأمل بزيارة كوبا ولكن الموت عاجله .

على ان أشد الدروس التي تلقاها فانون مرارة في الاستراتيجية الغربية للاستعمار الجديد كان ذلك الدرس الذي تلقاه من خلال سقوط صديقه باتريس لومومبا واغتياله المأساوي . ومن المصادفات ان الاثنين ولدا في عام واحد تقريباً وتوفيا في نفس الوقت ايضاً .

كانت الروح القومية المتطرفة عند لومومبا من نوع عصري نسبياً . وكان كلا الرجلين في نظر الجنس الابيض زنجياً غريباً ولكن في حين ان فانون كان يلقى على الاقل تقديراً ثقافياً فكرياً في فرنسا فان لومومبا لم يتمتع بشيء من ذلك . وفي

كتاب وضعه خلال العـــام ١٩٥٦ – ١٩٥٧ قال « اعتقد انه سيكون من الممكن في المستقبل القريب نسبياً منـــح الحقوق السياسية للنخبة من الشعب الكونغولي وللبلجيكيين المقيمين في الكونغو ... ولكن منح هـذه الحقوق للأميـين وللأناس الذين لا يحسنون استخدامها هوأمر غير وارد، لانه يعني وضع اسلحة خطرة في أيدي اطفال(٥) ». ومضى يقول« ان الاستقلال ليس له معنى في الوقت الحاضر فالمطلوب هو اصلاح تقدمي وجعل جهاز الادارة افريقياً». على ان لومومبا بدأ يتجه سريعاًمنذ ذلـــك نحو التطرف ولكنه كان اقرب الى طراز الوطنيين اليعاقبة منه الى الاشتراكيين ومن ثم تبدو عبارتـه المعروفة «انا هو الكونغو فالكونغو هو الذي صنعني وأنا الآن اصنع الكونغو » اقرب الى روح فلسفة نكروما منها الى روح فلسفة فانون . ومن المؤكد كذلك ان خصومه الرئيسيين كانوا اصحاب شركات المناجم الغربية واتباعهم من الجنود المرتزقة . كذلك كانت الحكومات الغربية قد بدأت تعتبره تهديداً خطـيراً لنفوذهـا في افريقيا الوسطى وأصبح لومومبا في غضون ذلك من دعاة الوحدة الافريقية المتطرفين . ولو امتد به العمر واتيـــح له ان يقولب السياسة الاجتماعية وفقاً لما كان يرسمه ويتصوره لأصبح الكونغو على

غرار غينيا أو غانا أكثر مما اصبح كوبا افريقية كما كان فانون يريد .

ولكن فانون أحس على كل حال وبحق ان سقوط لومومبا كان ضربة قوية للقضية الافريقية . ففي مقال نشره في صحيفة « افريك اكسيون » في شباط ١٩٦١ ، شجب الادوار الرجعية التدخلية لاتحاد المناجم ونظام حكم روديسيا واخيراً الامم المتحدة. وقال إن لومومبا قد أخطأ في دعوة الامم المتحدة للتدخل فقد ثبت ان الامم المتحدة عميلة للقوى المناوئة للاشتراكية وعميلة ايضاً لقوى الاستعمار الجديد[٦]. واضاف ان بعض الدول الافريقية مثل غانا ارتكبت خطأ مأساوياً حين بعثت بجيوشها الى الكونغو تحت امرة الامم المتحدة. واصر فانون على انه كان على هذه الدول ان تتدخل مباشرة لتأييد لومومبا . (من الوجهة العملية لا مفر لدولة صغيرة مثل غانا من ان تعتمد على دولة صناعية لنقل قواتها العسكرية جواً) .

وكان فانون نفسه قد عكف على العمل دون كلل او ملل في سبيل وحدة الوسيلة والهدف لا داخل افريقيا السوداء وحسب بل كذلك بين الدول الواقعة جنوبي الصحراء والجزائر . بل

انه كان يدعو الى ما هو ابعد من وحدة القارة السوداء اذ كان ينادي بوحدة «العــالم الثالث» كله . وبوصفه صحافيــاً منتسباً الى جبهــة التحرير الجزائرية لم يكن يمتدح الزعمــاء الاشتراكيين مثل نهرو وسوكارنو ونكروما وحسب بل يمتدح ايضاً الحبيب بو رقيبة رئيس جمهورية تونس وملك المغرب أي رجال الدولة الذين اعتبرهم (ضمنا) فيما بعد خونة للتيار الاصيل تيار مكافحة الاستعمار الجديد . وكان يدعو الى تأييد الثائر الأنغولي روبرتو هولدن باعتبار ان كل حركة ثورية في العالم الثالث تعتبر خطوة نحو توحيــد الجهودالمجابهة الاستعمار والاستعمار الجديد .

وكان الجنرال شال الفرنسي يبث الالغام على طول حــدود الجزائر مع كل من تونس والمغرب وذلك بغية منع تدفق الامدادات على جيش التحرير الجزائري داخل الولايات . وفي عام ١٩٥٩ اصطدمت سيارة جيب كان يستقلها فانون بلغم على الحــدود المغربيــة الجزائرية فاصيب فانون باثني عشر كسراً في سلسلته الفقرية صاحبتها اشتراكات ومضاعفات خطرة ، فــذهب إلى روما للمعالجة الطبية . ونُقل عن لسان صديقه الدكتور برفيل جومينر أن السيارة التي كانت تنقله من مطار روما إلى المدينة

قد تعرضت لعمل تخريبي على يد ارهابيي الثورة المعاكسة المعروفين باسم عصابة « اليـــد الحمراء » . ولكن السيارة انفجرت قبل الموعد المحدد فقتلت طفلين كانا يلعبان في الشارع . وبينما كان فانون في المستشفى في روما لاحظ ان احدى الصحف اشارت إلى وجوده في المستشفى فانتقـــل إلى غرفة اخرى . وفي تلك الليلة بالذات اندفع نحو الحجرة التي اخلاها عدد من المجرمين واطلقوا النار على السرير الخالي. ولم يكن فانون يدخل بعد ذلك إلى شقة جومينر الا بعد ان يفتشها تفتيشاً دقيقاً [٧] .

وفي العام التالي وصل فانون إلى أكرا وبدأ بتنظيم طرق الامدادات القادمـــة الى الجزائر من جنوبي الصحراء . وتصور « امكان شق اقنية ضخمة للملاحة عبر الصحراء ... وامكان تدفق الرجال من مالي والسنغال وغينيا وساحل العـــاج وغانا ونيجيريا وتوغولاند ليتسلقوا تلال الصحراء وينقضوا على معقل الاستعمار [٨]. وسرعان ما اتخـــذ قرار ببناء قاعدة لامداد الولايتين الاولى والخامسة الواقعتين جنوبي الجزائر . وهنا انطلق فانون في بعثة استكشافية لهذا الغرض ولكن رجال المخابرات الفرنسيين كانوا متيقظين وانتهى الوفد بوصول افراده إلى غرف

التحقيق في بئر الحكيم . وعندما وصل هو ورفقاؤه إلى منروفيا بليبريا اكتشفوا ان الوسيلة الوحيـــدة للوصول من هناك إلى كوناكري في غينيا بطريق الجو انما هي بطائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية . ولقد تنبه فانون واصدقاؤه إلى الاهتمام غير العادي الذي ابـــداه نحوهم موظفو الشركة الفرنسية فتجنبوا بحكمة الطريق الجوي سالكين طريق البر . وعلم بعـد ذلك ان الطائرة التي كادوا يمتطونها قد غيرت اتجاهها لتهبط في ابيدجان بساحل العاج التي كان نظام الحكم فيها بزعامـة هوفيت بونيه يتعاون تعاوناً وثيقاً مع مكتب المخابرات الفرنسي .

أما في باماكو فقد قــدم لهم الزعيم المالي موديبو كيتا كل مساعدة ممكنة . ومن هناك توجه الوفد عبر طريق طويل خطر الى كل من غوا وبوريسا وتمانراسه حيث اجرى اتصالات مـع الزعماء المحليين جامعاً شتى المعلومات المفيدة عن الظروف المحلية وهنا وقع فانون في قبضة مرض مميت ، مرض اللوكيميا . وبدأ وزنه ينخفض بسرعة . فسافر الى الاتحـــاد السوفييتي لتلقي العلاج . ولكن الاطباء هناك نصحوه بالسفر الى واشنطن . وفي صيف عام ١٩٦١ قال لجومينر « لقد علمت ان لدي ثلاثة اعوام

أو اربعة اخرى اعيشها . ولهذا اصبح من الضروري ان اسارع الى قول وعمل اقصى ما استطيع ... ولكن اخوتي الجزائريين طلبوا مني ان أعنى بصحتي [٩] » . بيد ان طاقته الانفعالية العصبية تزايدت واستغرق في كتابة مؤلفه « المعذبون في الأرض » وهو الكتاب الذي علق عليه سارتر فقال « ان العالم الثالث يكتشف نفسه ويتحدث الى نفسه من خلال هذا الصوت » .

فما هو المقصود « بالعالم الثالث » ؟ انه يعني بمفاهيم العلاقات الدولية والدبلوماسية « الحياد الايجابي » و« عدم الانحياز » نحو أي من الغرب أو الشرق ، ويعني بمفاهيم التطور الاقتصادي والتاريخي الشعوب المتخلفة الفقيرة والتي كان عدد كبير منها حتى عهد قريب شعوباً مستعمَرة . غير انه من سوء الحظ ان هذين المفهومين غير متطابقين . فاذا نظرنا الى العالم الثالث من خلال المفهوم السياسي المتطرف اضطررنا الى استبعاد الصين وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية من جهة وكوريا الجنوبية وتايلاند وعدد كبير من الدول الامريكية اللاتينية من جهة أخرى . ثم ان بلداً مثل يوغوسلافيا يعتبر بلداً بارزاً في صفوف الدول غير المنحازه ولكنه من زاوية التطور الاقتصادي والصناعي

لا يمكن ان يوضع في مصاف مالي او الهند .

ومن هنا فان المهم في نظر فانون في تصنيف دولة ما في عداد العالم الثالث هو عنصر الفقر وانعدام التصنيع نسبياً فضلاً عن وجود طبقة واسعة من الفلاحين الذين يناضلون لرفع مستواهم ومحاربة الاستعمار الجديد . انها بصورة عامة تلك الحالة التي تعتبر فيها فكرة العالم الثالث فكرة شاذة حيث تهيمن رسمياً العقيدة الماركسية – الشيوعية .

وهنا يكون التأكيد والتركيز على تحالف المصالح بين الطبقة العاملة في الدول الاشتراكية من جهة وجماهير الفلاحين في الشعوب المتخلفة من جهة اخرى . وعلق على ذلك ف. استامبولي وهو تونسي معجب بفانون فقال انه من التضليل « ان يعتبر فانون ان العالم الثالث بكامله منقذ للبشرية على أساس مهمة او رسالة محددة منوط به اداؤها [١٠] » ولكن من الواضح ان استامبولي انما كان بذلك يبدي تلهفاً على ان يزداد « فانون » اقتراباً من الخط الماركسي .

يرى فانون ان اوروبا مدينة للعالم بالشيء الكثير الذي ينبغي سداده ، ففي اعتقاده ان ما تنعم به اوروبا اليوم من

الرفاهية هو فضيحة مخزية لأنه مستمد في الاصل من تراكمات الثروة التي جُمعت من عرق العبيد ونُهبت من ثمـــار ومنتجات ارض السكان الاصليين للمستعمرات ، ان اوروبا في نظره هي صنع العـــالم الثالث . وان الاموال التي تنفقها في سباق التسلح وحده كفيل بان يترك اثراً مذهـــلاً في اقتصادالاقطار المتخلفة . ومن هنا يرى فانون ضرورة وضع حد للحرب الباردة ويضيف انه اذا كان من الانصاف ان يدفع اديناور تعويضات الى اسرائيل فلماذا لا تقتفي الدول الاوروبيـــة الغنية الاخرى أثره ؟ فبدون تقديم مساعدات كبـــيرة من اوروبا الى الاقطار المتخلفة تكون حالة الاقطار الاخيرة ميئوساً منها . على ان فانون لم يشأ ان يعتمد على حسّ العدالة المفقود لدى الاوروبيين وحسب بل تجاوز ذلك الى انذارهم بانه اذا ما استمر العالم الثالث في وضعه الحالي من الركود فان الرأسماليين الغربيين سيضطرون الى التعرض لاغلاق مصانعهم بحيث تسود اوروبا موجة جديدة من القلق .

وتختلف نظرة فانون من هذه الزاوية اختلافاً شديداً عن نظرة اولئك الذين يدعون أن أقطار افريقيا وآسيا لم تكن تظهر قبل عهد الاستعمار أية دلائل على تطوير ارادتها وثقافتها وتنظيماتها

ومواردها الفنية بغية الانطلاق نحو تقدم صناعي . ومعنى هذا الرأي ان الاستعمار عملية مفيدة دون شك وليس عملاً استغلالياً، فقد ارسى أساس انطلاقة صناعية . (واترك جانبـــاً هنا غباء اولئك المؤرخين الذين يزعمون ان الشعوب الاوروبية انما أقامت امبراطورياتها خلال القرن التاسع عشر بطريق المصادفة) وليس في الامكان الآن بحث هذه النقطة بالتفصيل ولكن لا جدال في ان كروسو الاستعماري ، خلافاً للادعاء القائل بأنه حمــل معه الفوائد الاقتصادية الى الصحراء الجدبة، قد شوّه وأحياناً دمّر حضارات مزدهرة واقتصاداً نامياً . ومن المعروف كذلك انه في غضون الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر تم نقل حوالى ١٥ مليون نسمة من العبيد من افريقيا الى الامريكتين دون ان يحسب عدد اولئك الذين كانوا يفقدون أرواحهم أثناء الطريق أي خلال عبور المحيط الاطلسي كما جرى في حادثـــة الـ ١٧٣ عبداً المعروفة ، فقد مرض هؤلاء العبيد فألقى بهم قائد السفينــة في البحر لتخفيف الحمولة وذلك في عام ١٧٨١ . وفي عام ١٧٨٨ كانت ثروة المزارعين البريطانيين من أصحاب مزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية تقدر بنحو ٧٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني . والواقع ان بعض المرافىء الشهيرة مثل مرفأي

ليفربول وبريستول قد أثرت بسبب تجارة العبيد . وكانت الرساميل التي تراكمت في هذه المرافىء هي المصدر الذي تكون منه الفائض الرأسمالي الذي عليه بنيت الثورة الصناعية في بريطانيا . أما الأرباح التي جنتها بريطانيا من مستعمراتها فقد كانت ضخمة جداً ومن ثم فلا يستطيع المرء ان يعارض فانون عندما يقول : « ان عمليات الترحيل بالقوة والمذابح وأعمال السخرة والرقيق كانت الوسائل الأساسية التي استخدمتها الرأسمالية لمضاعفة احتياطيّها من الذهب والماس وثروتها وبالتالي تعزيز قوتها » . ولم يكن فانون مبالغاً عندما وصف حالة الفقر المدقع التي تعانيها أجزاء كبيرة من العالم الثالث . ففي عام ١٩٥٩ كان معدل الدخل السنوي للفرد في مالي ٥٢ دولاراً فقط . ويلاحظ بصورة عامة انه كلما كان دخل الفرد أدنى كان معدل النمو الاقتصادي أشد انخفاضاً وكان اعتماد السكان أكثر على التراوح في أسعار المنتجات والمواد الخام في السوق العالمية . ومع ذلك فالناس غير متفقين بشأن ما يعتبر « استغلالاً » .

ولعل هذا الاختلاف بشأن تفسير هذه المشكلة يمكن حله من خلال القصة الرمزية التالية التي صاغها برشتيان : يأتي الرجل

الأبيض إلى النهر العريض المزمجر فيقفز فوق ظهر الرجل الزنجي من السكان الأصليين ويصرخ فيه : « اسبح » ! فيسبح المسكين قاطعاً به عرض النهر الى ان يصل به الى الضفة الأخرى وهو منهوك القوى فيطلب أجرته ولكن الرجل الابيض يصرخ به مستاء ويقول : « لولاي لما قطعت النهر » !

٦ ـ حول الثورة والعنف

وضع فانون كتاب « المعذبون في الأرض » ونشره في غضون العام الاخير من حياته . ومن هذا الكتاب بالذات يستمد فانون في الدرجة الأولى مكانته ونفوذه . فهو ، خلافاً لكتبه السابقة، كتاب منهجي يتناول موضوعات اجتماعية ويستعرض فيها مشكلات العالم الثالث بصورة عامة . وفانون يفعل ذلك بحيوية لا تهدأ وبروح نبي يكتب بحرارة لاهبة . ولكن الكتاب ليس مما يسهل تفسيره . ذلك ان فانون شغوف بالحكم والاقوال المأثورة إلى حد يدفعه إلى الاكثار منها على حساب الدقة في المعنى . وكثيراً ما يورد تعميمات شاملة دون ان يستند الى دليل ملموس . ان لوحات العالم الثالث الواسعة مليئة بضربات فرشاته المغموسة في دهان افريقي خالص . أما عن آسيا فلا يتحدث فانون بشيء .

ويكتب فانون تعليقاته بصيغة الحاضر ولكن احساسه بالتسلسل التاريخي يضيع في دوامـــة تتأرجح بين الماضي والحاضر مرة والحاضر والمستقبل مرة اخرى والمستقبل والماضي مرة ثالثة . وفي كل هذه الصيغ ينتهج اسلوب الجزم. ويلاحظ ان الحديث عن الثورات الاشتراكية التي لا نظير أو نموذج لها في التاريخ الماضي يقترن بنفس صيغة الجزم التي يتحدث بها عن حالات الانحلال والانهيار في التاريخ الماضي والتي لا يصعب على المراقب ان يتتبع مصدرها او يتكهن به . وهو يرى في الثورة الجزائرية نموذجاً لافريقيا بكاملها ويضع مجموعة موحدة من المُثُل لقارة تمتاز بسعة مساحتها وتفاوت شعوبها . وعلى الرغـــم من كل هذه العيوب فان « المعذبون في الارض » يظل واحداً من أعظم الوثائق السياسية في عصرنا .

فالكتاب أولاً يخرق بشعاعه القوي الطبقة البورجوازية في الشعوب المستعمَرة من سوداء ومن سمراء . ففي اعتقاده ان البورجوازية الغربية منتجة وطفيلية في آن معاً ، أما البورجوازية في الشعوب المستعمَرة فهي طفيلية وحسب . وهي اذ تفتقر إلى الكفاءة والبراعة بوصفها تؤدي مهمة المقاول والمتعهـد تكتفي باداء مهمة الوكيل للشركات الغربية ، ويتولى افراد هـــذه

الطبقة استغلال أشقائهم من أفراد الطبقة العاملة والفلاحين من السكان الأصليين وينأون بأنفسهم عنها ويكنون لهم الازدراء . وهم يرفلون بأثواب الرفاهية ويستثمرون أموالهم خارج حدود وطنهم . وهم ، فوق ذلك كله ، لا يقومون بأي دور بنّاء في زيادة الثروة القومية للبلاد بل يميلون الى القيام بنشاطات في ميدان اقتصاد الخدمات مثل العمل كتجار مفرق وممارسة المهن كالمحاماة والوظائف الحكومية والعمل كسياسيين أو ضباط جيش .

ولا شك ان فانون كان مصيباً جداً في كل ذلك وان كانت أحكامه مستمدة إلى حد كبير من ملاحظاته في المجتمع الغاني ومجتمع ساحل العاج فقط . فقد اتضح من دراسة أجريت في نيجيريا عام ١٩٥٨ ان ٧٥ في المائة من النخبة في البلاد تعمل في المهن الراقية والسياسة ووظائف الحكومة . وفي عام ١٩٥٥ لم تكن نسبة الصناعيين في صفوف الجزائريين العرب لتزيد على ار. ٪ من مجموع السكان ولكن يمكن القول بأن الاستعمار هو المسؤول عن ذلك لأن الطبقة البورجوازية في صفوف السكان الأصليين خلقها الاستعمار نفسه وشرّبها بأسوأ أنواع سمومه العنصرية .

وقال فانون ان البورجوازية المحلية كانت تشكل في مرحلة الصراع ضد الاستعمار العمود الفقري للأحزاب الوطنية . ومن ثم فان هذه الأحزاب التي بـــدأت في الأصل تقدمية ووطنية انتكست بسرعة لتتحول بسرعة للعمل على تشكيل ما يشبـه وكالات لنقل السلطة والامتيازات من ايدي حفنة من البيض الى ايدي حفنـة من الملونين . وعلى الرغم من عنف اللهجة التي تستخدمها هذه الاحزاب فانها تلتزم عادة الحذر وتتبنى وجهة النظر الاصلاحية وتمتنع عن استخدام العنف (لم يكن فانون من المعجبين بسياسة غاندي) . وقد يستغلون الثـــورة المسلحة ولكنهم لا يقدمون أبداً على اشعالها . ولعل احداً من الوطنيين المعروفين في كينيا لم يكن عضواً في حركة المـاوماو أو دافع عنها بصراحة . واذ تجد هذه الاحزاب الوطنية نفسها معزولة عن القطاع الريفي من الشعب أو معادية له فانها تحرف معارضتها السياسية نحو الاشكال الرجعية والقبلية . واذن فلا بد من انتزاع حركة التحـرر الوطـني من قبضة الطبقـة البورجوازية بأي ثمن كان .

ولا بد من التساؤل هنا عن طبيعة تركيب القوى الاجتماعية

التي من شأنها ان تضمن في هذه الحالة سلامة الثورة .

والجواب عن ذلك طبقاً للمفهوم الماركسي- الانغلي « نسبة الى انجلز) ان طبقة العمال الكادحين في المدن هي القوة الثورية الاجتماعية المهيأة لهذا الأمر، في المجتمعات الرأسمالية. هذه هي الطبقة الأممية التي تقيم دكتاتوريتها الخاصة ، في مرحلة تمهيدية للشيوعية نفسها. ومع ان ماركس لم يناد بطريق واحد فقط للسير نحو ثورة تاريخية ولم يصر على انه لا بد ان تمر جميع المناطق في العالم عبر التجربة الرأسمالية واقترح في الواقع ان يجرب الفلاحون الروس نقل مجتمعهم من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة الاجتماعية مباشرة إلا ان لينين ركز على ان تشكل الطبقة العاملة الكادحة (البروليتاريا) المقدمة الاساسية لحلف ثوري ينتظم العمال وافقر الطبقات الفلاحية . ولئن كان مثل هذا التحالف ضرورياً في بلد كروسيا فانه حتمي في آسيا وافريقيا حيث لا تشكل طبقة العمال إلا نسبة ضئيلة جداً من السكان . والحقيقة انه لم يحصل قط أي ابتعاد نظري من التروتسكيين أو الستالينيين أو الماويين عن هذا المفهوم أي مفهوم المقدمة العمالية . فلم يحدث ان أنكر أي من هؤلاء احتمال قيام الفلاحين بثورة ناجحة . كذلك لم يحدث ان تخلى احد من هؤلاء من الوجهة النظرية عن تطابق

المصالح بين طبقة العمال الغربيين وشعوب المستعمرات . صحيح ان لينين لفت الانتباه الى « ارستقراطية عمالية » يمكن ان تزدهر نسبياً على حساب المنهوبات الاستعمارية الا انه لم يقصد إلا وصف ظاهرة تصدق في حالات قليلة وتطمسها الازمة العامة للاستعمار الرأسمالي .

واذن فان فانون لم يكن ماركسياً بالمعنى التقليدي . اذ لم يكن يعتقد ان طبقة العمال الغربية طبقة ثورية ولا هي متعاطفة مع الشعوب المستعمَرة . ذلك ان فانون يعتقد ان العمال الغربيين هم في عداد المستفيدين من الاستعمار الجديد بل هم شركاء فيه . هنا كانت الحرب الجزائرية هي المصدر الحاسم الذي استمد فانون تجربته منه . وكثيراً ما أشار الى العمال والفلاحين الفرنسيين المتعطشين للدماء وهم يحاربون جبهة التحرير الجزائرية . ولاحظ فانون ترحيب الابطال الذي استقبلت به جماهير باريس في الرابع عشر من تموز ١٩٥٧ رجال المظلات التابعين لماسو . ثم ، ألم يبرر الحزب الشيوعي الفرنسي موقفه بناء على عواطف العمال الفرنسيين ومشاعرهم ؟ والحقيقة ان فانون لم يكن وحده في التوصل الى هذه الاستنتاجات فقد وصف سنغور التضامن بين العمال الغربيين والشعوب المستعمَرة بأنه وهم رومانتيكي لا اكثر.

كذلك فان ســارتر سار في هذا الطريق ايضاً . فنحن نراه في اوائل الخمسينات يشترك في النظرية الماركسية التي تُسوّى بين الطبقة العاملة والطبقة الأممية . ولقد اعترف في عام ١٩٤٨ بأن العامل الأبيض يستفيد على الرغم منه ، من المستعمرات وان كانت فائدتــه ضئيلة . ولكن بحلول عام ١٩٦٠ اختفت من تحليلات سارتر القاسية الانتقاد عبارة « على الرغم منه » وكلمة « ضئيلة »عندما عمد الى تحليل عقائدية الطبقة العاملة الاوروبية .

ولقد تعرضت افكار فانون هذه الى انتقاد الماركسيين من جميع الاتجاهات . فقد وضع المعلق التروتسكي ميشيل بابلو اللوم على قيادات الاشتراكيين الاصلاحيين والاحزاب الشيوعية التحريفية فيما اصيب به العمال الاوروبيون من شلل . وهكذا يكون فانون قد اخطأ فجعل من تشويه سياسي موقت حقيقة اجتماعية دائمة [1] . ومن الناحية الاخرى ، يصر الناطقون بلسان دول الكتلة الشيوعية على انه لا مفر لجماهـــير الشعوب المستعمَرة من الاستنجـــاد بطبقة العمال في الدول الاشتراكية مادام العمال الغربيون مقيدين بسلطة الرأسماليـــة والدعاية البورجوازية .

وينتقل فانون الآن إلى مرحلة أخرى فهو ينفي أن يكون للطبقة العاملة من السكان الأصليين في المستعمرات طابع ثوروي فهي كالطبقة البورجوازية من اولئك السكان تتمتع في ظل الحكم الاجنبي بمزايا خاصة وباجور طيبة . وهي بصورة عامة موالية للأحزاب الوطنية . (واذن فإنه من تبسيط الأمور أن نفسر آراء فانون على انها تصف ، على نحو مجازي ، جميع السكان المستعمَرين — باستثناء الاغنياء منهم — بانهم «الطبقة العاملة» في النظام السياسي الاقتصادي للعالم العصري وتصف جميع سكان الدول المستعمِرة بانهم « بورجوازيون ») . والواقع ان فانون تعرض بسبب هذه النظرية ، نظرية ان طبقة العمال من السكان الاصليين في المستعمرات ليست ذات طابع ثوري ، لانتقاد حاد وجهه اليه بنوع خاص الزعيم الشيوعي الفيتنامي بنغوين نغه الذي قال : « ان الفلاح لا يستطيع مطلقاً ، ان يكتسب من تلقاء ذاته ، وعياً ثورياً ، فالمناضل القادم من المدن هو الذي يتعيَّن عليه ان يكتشف بصبر وجلد أشد العناصر الفلاحية الفقيرة ذكاء ويعلمها ..[٢] » . ويؤخذ مما قاله بنغوين نغه : ان تحليل فانون الانتقادي للطبقة العاملة من سكان المستعمرات الاصليين ينهار أمام عجزه عن التفريق بين عناصر الطبقة العاملة الاصلية مثل

عمال أحواض السفن والمناجم وبين فئات البورجوازية الصغيرة مثل الكتبة وسائقي السيارات . ويبدو ان التضليل الذي وقع فانون ضحيته تعود أسبابه إلى ان المعارك الحاسمة التي دارت في الصين وفيتنام وكوبا والجزائر انما جرت في المناطق الريفيــــة وكانت الكثرة الساحقـــــة من رجال العصابات فيها مؤلفة من الفلاحين . ولكن ينبغي ان لا يفوتنا ان قيادة العناصر المدينية والمفكرين والعمال كانت مما لا غنى عنه على الاطلاق . فالثورة المؤلفة من الفلاحين وحدهم لا يمكن ان يرتجى لها مستقبل ناجح. ولقد وافق على ذلك بصورة عامة العالم السوفييتي بوتخين عندما قال : « ان على الطبقة العاملة الافريقية أن تحقق مهمة تاريخية محددة وأن تأخـــذ زمام المبادرة في ترسيخ نظام اشتراكي للانتاج وأن تتولى قيادة طبقـــة الفلاحين في اداء هذه المهمة »[٣] .

كل ذلك يقودنا الى صلب نظرية فانون الــتي تتلخص في ان الطبقة الثورية الأصلية في العالم الثالث هي طبقة الفلاحين الفقيرة ضحية عملية الافقار التام . فهذه الطبقة تتألف ، كما يرى فانون، من رجال ونساء ذوي أحاسيس ومفاهيم اجتماعية ثورية. وهم فئة « متلاحمة تعيش حياة راكدة ولكنها تتمسك كل التمسك بقيَمها

الخلقية وتكريس نفسهـــا للحفاظ على سلامـــة الشعب [٤] .
والفلاحون ذوو روح كريمة ، وهم على استعداد لتقـــديم الحماية للمناضلين من سكان المدن الذين تتعقبهم سلطـــات الامن وعلى استعداد كذلك لاستصلاح أراضيهم والحفاظ على كرامتهم من خـلال اللجوء إلى العنف . هؤلاء الرجال والنساء هم ، كما يرى فانون ، « المعذبون في الأرض » الاصلاء .

ويرسم فانون اتجاه تقدم الثورة وفقـــاً للخطوط التالية :
تبدأ الثورة ، ثم تعد جذورها وبنيانهـــا العسكري في المناطق الريفية ثم تتسلل إلى المدن من خلال الفلاحين المشردين عن أراضيهم الاصلية والقاطنين في الأكواخ الشعبية من ضواحي المـدن لأن سكان هذه الاكواخ لا يكونون قد نجحوا بعد في العثور على « عظمة يقضمونها في ظل النظام الاستعماري » . وهكذا تجـد الثورة رأس حربتها المدينية في هـــذه الطبقة التي هي أشبه ما يكون « بمجموعة من الجرذان في وسعك أن تركلها بأقدامك أو ان ترميها بالحجارة ولكن على الرغم من كل ما تفعله فانهـا تظل تقضم وتحفر عند جـذور الشجرة [٥] » . هؤلاء الكسالى الذين لا ينتمون الى أية طبقة والذين تجد في صفوفهم المومسات وصغار المجرمين ، قد ندد بهم ماركس كل التنديد ولكنهم في

رأي فانون محترمون في رأي أنفسهم وفي رأي التاريخ .

على أن فانون لا يعزز رأيه هذا بالحجج والامثلة الواقعية ومن ثم فان من الصعب ان تجد الامثلة الملموسة التي يمكن أن تستند اليها مثل هذه النظرية بأمان . ومع ذلك يمكن القول بأن سكان الاكواخ من حي القصبة الجزائري استطاعوا خلال الحرب الجزائرية أن ينقلوا معركة جبهة التحرير الجزائرية إلى المدينة . ولقد اعتبر زولبرغ هذه الفقرات من كتابات فانون كبرهان على ميله للغيبيات ، وتحدث عما اسماه « هذيان فانون الذي يقرنه برمبوا وجين جينه » فالمدينة تشتعل بالحرائق التي يتطهر بنيرانها الملعونون . لقد أصبحوا يتصفون بالجمال والطهارة [٦] . وتتهم ارندت فانون « بالمبالغات الخطابية » وهي تهمة يصعب دحضها . ففي حين انه من المحتمل جداً ان تصدر في خضم المعركة عن القوادين والمومسات والنصابين أعمال تتصف بالمثالية ونكران الذات الا انه من المستبعد جداً ان يحولهم الصراع الى مواطنين منتجين في أمة المستقبل الاشتراكية. ومن ثم فليس مما يفيد ان نصف قوادي هافانا ومومساتها بانهم أشد المعجبين بكاسترو . ومما يجدر ذكره ان فانون عجز عن التمييز بين نواة سكان الاكواخ وبين المهاجرين اليها من سكان

القرى الذين يفدون الى المدينـة ثم يعودون الى قراهم بين وقت وآخر . فهذه الفئة الاخيرة من سكان الاكواخ هي أقدر على النشاط الثوري الذي يصفه فانون ويرغب فيه . ويمكن مشاهدة ذلك كله في ثورات كينيا وغينيا البرتغالية .

ويبدو ان نيغه مصيب من زاوية واحـدة : فقد عجز فانون عن التمييز بين مواقف الطبقات المدينية المختلفـة . فأجر العامـل الافريقي وان كان أعلى من دخل الفلاح فانه لا يعني ان مستوى معيشة ذلك العامـل أعلى من مثيلها لدى الفلاح إلا حين يتخلص من اقربائه الذين يعيلهم . ثم ان العامل ليس لديه خيار في الانضمام الى الحزب الوطـني ولكنه اذ يفعل ذلك يصبح عادة أشد تطرفاً من رجل الاعمال او الموظف او سائق سيارة الاجرة . وعلى الرغم من ذلك فان ثوريته تبقى محدودة .

اما رأي نيغه بأن « المناضلين والمفكرين والعمال المدينيين » يشكلون قيادة لا غنى عنها للعصابات الفلاحية في جيش مـاو وجيش جيـاب وعصابات كاسترو وجيش التحرير الجزائري فيمكن التعليق عليه بأن أهمية مفكري الطبقة الوسطى للحركات الثورية تفوق بكثير أهمية العمال المدينيين . على انه لا بد ان

يؤخذ عنصر الكثرة العددية بعين الاعتبـار ايضاً . ففي تنجانيقا كان ٢,٥ في المائة من السكان فقط يعيشون في المدن ، وفي ساحل الذهب كان ٤,٥ في المائة فقط من كسبة الاجور (في القطاعين الصناعي والزراعي معاً) . وفي دراســة اجريت في الجزائر التي تعتبر بلداً متقدماً نسبياً بالمقاييس الافريقيــة ، كشفت تلك الدراسة النقاب على ان ٧٢,٢ في المائة من السكان العرب كانوا في عام ١٩٥٤ يعملون في القطــاع الزراعي ولم يكن العمال المهرة يشكلون أكثر من ٤,٦ في المائة [٧] . ويلاحظ ان سكان المدن في افريقيا منقسمون على انفسهم من الناحية العرقية وبالتالي من الناحية السياسية ايضاً . ما الاتحــادات فكانت ضعيفة . وفي عصر فانون كان عدد افراد قطاع العمال المهاجرين الذين يعملون بدوام جزئي يفوق بكثير عدد افراد العمال الذين يعملون بدوام كامل. وفي الكونغو كانت أقل المناطق تطرفاً في عام ١٩٦٠ هي أشدها تصنعاً ونعني بها مقاطعة كاتنغا . والواقع ان أشد المناطق ثورية كانت أشدها فقراً وهي تلك المناطق التي يعتبر فيهــا كسبة الأجور من العناصر المحظوظة المستفيــدة من التقدم المادي في البلاد . وعبثاً نحاول ان نجد في كتابات جيفارا ما يدل على حتمية الحاجة الى العمال المدينيين لنجاح العصابات . والنتيجة الحتمية

هي انه سواء كان ما ذكره فانون من ان طبقة الفلاحين الافريقية هي طبقة ثورية صحيحاً أو غير صحيح فليست في افريقيا المعاصرة طبقة اخرى غيرها .

ومع ان فانون يصنف الطبقات الاجتماعية طبقاً للمقاييس الماركسية (وفقاً لعلاقاتها بوسائل الانتاج) الا انه يقيس تصرفها السياسي وفقاً للعوامل التالية : (١) مستوى الحيوية (٢) حجمها أي عدد افرادها (٣) مدى تلاحمها بالنظام الاستعماري. ويعتبر تركيزه على العاملين الاول والثاني افتراقاً منهجياً عن الماركسية. وهنا يبدو نفوذ افكار سارتر الواردة في كتابه « نقد الفكر الديالكتيكي » قوياً عليه . ويبدو ذلك خاصة في التركيز على « الحاجة » و « الندرة » بوصفهما المسببات الرئيسية للعنف الاجتماعي من الوجهتين التاريخية والاقتصادية . ان ديالكتيك التطبيق العملي يسبق تشكيل الطبقات كما ان توزيع العمل يبقى عنصراً مهماً في مجتمع الطبقات ويحتمل ان يستمر في التأثير حتى في ظل الاشتراكية . وينتج من ذلك ان افقار طبقة الفلاحين في المستعمرات كفيل بأن يولد تطبيقاً عملياً متطرفاً في حين ان الازدهار النسبي للطبقة العاملة من شأنه ان يولد الانتهازية

الاصلاحية .

ان التزام فانون بالاشتراكية واضح جلي في صفحات كتابه « المعذبون في الارض » فقد لاحظ بحماسة بالغة االموقف الذي تبناه مؤتمر كوتونو الافريقي عام ١٩٥٨ تأييـــداً للاشتراكية والانتاج الجماعي . وكان مقتنعاً بأن الوسيلة الوحيـدة لكسر سلطة المؤسسات الاحتكارية وتحويل الاستغلال من استغـلال اسمي الى فعلي وبالتالي ضرب الاستعمار الجديـد إنما يكمن في تأميم قطاعي الانتاج والتجارة . ولكنه كان يرى ان التأميم بحد ذاته خطوة غير كافية ولا بد ان تعقبها خطوات جذرية لانتهاج الادارة اللامركزية والمشاركة الجماهيرية الديمقراطية في مشروعات تعاونية . وهكذا فعلى المستوى الوطني كانت مفاتيح التقـدم تكمن في التنسيق بين التخطيط والتقشف والتعليم .

وكان فانون ، بدافع من الاسباب الاجتماعيـــة التي سبق ذكرها، يصر على ان حركة التحرر الوطني والثورة الاجتماعية ينبغي ان تتلاحمـــا في انطلاقة موحدة . فقد كان يؤمن بأنه « ينبغي ان لا يسمح للبورجوازية بأن تجد الظروف اللازمة لوجودها ونموها في الاقطار المختلفة » . ويقول صمويل رودي

بهذا الصدد ان فانون يتورط هنا في تشويش تمكن زعماء الكومنترن مثل لينين وروي من تجنبه. فقد بنى زعماء الكومنترن استراتيجيتهم على حملة ذات مرحلتين : الاولى هي مرحلة الثورة الوطنية البورجوازية التي تتحالف خلالها احزاب الطبقة العاملة مع البورجوازية الوطنية . ثم تأتي المرحلة الثانية التي تنشب فيها الثورة الاجتماعية وذلك بعد ان يكون الاستقلال قد تحقق ونشأت محاور استقطاب طبقية جديدة ضمن الشعب. ومع ان رودي مصيب في التفريق بين المرحلتين إلا ان الدروس التي يقدمها تاريخ القرن العشرين تؤيد وجهة النظر التي تبناها فانون. فمع ان الثورة الروسية تمت على مرحلتين (آذار وتشرين الثاني ١٩١٧) فقد وجد البولشفيك ان من الضروري ان يضربوا ضربتهم قبل ان يتمكن البورجوازيون من توحيد قواهم وساعدهم على ذلك استمرار روسيا في حربها اليائسة ضد المانيا. اما الثورتان الشيوعيتان الناجحتان في الصين والهند الصينية فقد كانت كل منهما حرباً تحريرية واشتراكية في آن معاً . ولم يسمح لشيانغ كاي شيك قط بأقامة دولة بورجوازية في الصين.

وكانت الثورة الاشتراكية الاصيلة الوحيدة في اوروبا وهي ثورة يوغوسلافيا متلاحمة كل التلاحم مع الصراع في سبيل

الاستقلال . ومن ثم فان المراقب يبحث عبثاً عن مثال لثورة ناجحة ذات استراتيجية مزدوجة المراحل. أما الثورات الموسمية المتتالية في العالم العربي فهي تنبع من عوامل مختلفة كل الاختلاف. والحقيقة انه اينما رسخت البورجوازية الوطنية اقدامها في بلد ما من افريقيا أو آسيا استطاعت ان تحتفظ بقوتها .

ولهذا كله كان فانون يعلق اهمية كبرى على القيادة العقائدية السليمة خلال الصراع ضد الاستعمار . وهو يقول في ذلك : « من ناحيتي ، كلما تغلغت في الاوساط الثقافية والسياسية (من افريقيا) ازددت يقيناً بان الخطر الكبير الذي يهدد افريقيا انما هو فقدان العقائدية . فمهمة التقدم بالشعب نحو النضوج تصبح اسهل وايسر اذا اقترنت بقيادة تتمتع بالقدرة على احكام التنظيم وتحلت بمستوى فكري رفيع [٨] » . والمشكلة هنا هي ان فانون لم يحاول ان يعالج بالتفصيل مشكلات بناء مجتمع واقتصاد اشتراكيين. فهو مثل ماركس كان أشد اهتماماً ببذر بذور الحقد في رحم المجتمع القديم الفاسد منه بالبحث عن وسائل وضع الوليد والعناية بحياته .

ان معظم القادة « الاشتراكيين » في افريقيا يصرون على ان

المجتمع الافريقي هو في الدرجة مجتمع لا طبقي او خـال على الأقل من الصراع الطبقي . ولقـد عبر عن وجهة النظر هذه كل من سنغور وتوري ونكروما وموديبو كيتا ونيريري . وفي السنغال وتنزانيا يبدو ان الاشتراكية قد عرفت رسمياً على انها موقف فكري معين . فسنغور يتحدث عن تلاحم بين القيم الخلقية والدينية الافريقية من جهة و « التقاليـد الثورية » من جهة اخرى .

وفي غانا وغينيا يدور الحديث حول الاشتراكية على نحـو مبهم ففكرة توري عن الاشتراكيـة هي انعكاس لنظـام يمثل رغبات الشعب كله اكثر مما يمثل رغبة طبقة واحدة . وفي حين ان نكروما سمح بتقـديم بعض الدروس الماركسية في مركز التدريب العقائدي في وينبا فان صحيفة « الشعلة » الصادرة في اكرا سخرت من النظرة الماركسية التي تنطوي على الايمان بوجود مجتمع لا طبقي في المجتمع الافريقي الذي سبق عصر الاستعمار . ولكن نكروما اعلن بصراحة في شهر كانون الثاني ١٩٦٣ انه لم يكن يوجد في مجتمع السكان الافريقيين الاصليـين صراع بين الطبقات. وجاءت دراسة نكروما التي اسماها « تحرك الضمير » والتي نشرها عام ١٩٦٤ لتضم صوتـه الى صوت اولئك الذين

يعتقدون ان الكوميونية المحلية القديمة هي الاصل الطبيعي للاشتراكية العصرية التي تطورت اصلاً من خلال عملية اصلاح دائم . وفي غضون ذلك قال توم مبويا – كينيا – « عندما اتحدث عن الاشتراكية الافريقية اشير الى قوانين السلوك السائدة في المجتمعات الافريقية والتي اسبغت ، على طول مئات الاعوام ، الكرامة على شعبنا .. »

اما من حيث السياسة العملية فقد اوقفت في غينيا عام ١٩٦٢ اجراءت التأميم القديمة عندما صدر في البلاد تشريع جديد يضمن للمستثمرين الاجانب عدم مصادرة اموالهم . وفي شهر نيسان ١٩٦٢ صدر في غانا قانون مماثل بعد ان خاطب نكروما مجموعة من رجال الاعمال قائلاً « نحن من جانبنا نرحب بكل مستثمر شريف يريد الحصول على ارباح عادلة ولكننا لا لا نعتزم التساهل مع أي انسان يحاول توجيه الطريق السياسي الذي ينبغي ان نتبعه » . ولكن هذا الكلام هو في الواقع لا معنى له ، ذلك ان مجرد اعطاء ضمان ضد المصادرة ينطوي على تنازل عن السيادة السياسية .

ولما كان فانون لم يعلق مباشرة على نظرية « الكوميونية

اللاطبقية ، للاشتراكية الافريقية فاننا مضطرون الى الاعتماد على الاستدلال لا على النص وهنا يتراءى لنا ان فانون يعزو تشكيل الطبقات في افريقيا بالدرجة الاولى الى الاستعمار نفسه. ونتيجة لذلك نجد صراعاً طبقياً مباشراً بين الفلاحين والبورجوازيين المدنيين ونزاعاً غير مباشر بين مصالح طبقة الفلاحين وطبقة العمال . وفي الوقت نفسه نجد ان النزاع بين الاحزاب الوطنية المدينية من جهة ورؤساء القبائل من جهة اخرى هو ذو طابع اقرب الى السياسة منه الى الاقتصاد (ولكن هذا يصدق ايضاً على الصراع الذي كان ناشباً خلال القرن الثامن عشر بين البورجوازية الفرنسية وطبقة ملاك الاراضي الفرنسيين) . ولما كانت للبورجوازية الوطنية والطبقة العاملة جذور ضعيفة نسبياً في البنيان الانتاجي ، فقد اصبح من المحتم ان تكون طبقة الفلاحين ، اذا كانت ثورية وموحدة ، قادرة على القضاء على الطبقتين السابقتين وكذلك على رؤساء القبائل دون حاجة الى نزاع طبقي طويل الأمد . وكما كان فانون يريد من النساء الجزائريات ان ينزعن الحجاب عن وجوههن بأنفسهن بدلاً من ان يقوم بذلك الفرنسيون كذلك كان يريد من طبقة الفلاحين الافريقية ان تسوي حساباتها بنفسها مع رؤساء قبائلها بدلاً

من السماح للاحزاب الوطنية بان تفعـــل ذلك كما حدث في غانا مثلاً .

ولكن هذا يعني التحدث ، كما فعل فانون نفسه ، بمفاهـيم اجتماعية غربية عامة . وأما البِـنى الفعلية للمجتمع الافريقي والبنى الفعلية للمؤسسات السياسية الافريقية قبل عهد الاستعمار فيختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف . وليس من شك في ان هذه الاختلافات قد لعبت دوراً هاماً في تعقيد التطور السياسي الافريقي خلال الستينات. فقد تكون قبيلة افريقية او جماعة ما ذات نزعه فردية من حيث الانتاج ولكنها تعاونية في مجال الاستهلاك ، وقد تنتهج اسلوب تبادل المساعدات ولكن ضمن حدود ضيقة . وفي بعض المناطق لم يكن هنـــاك ملاكون كبار في حين كان ذلك سائداً في بعض المناطق الاخرى مثل اثيوبيا ويوغنـــدا ونيجيريا الشمالية وشمال الكاميرون . وامـا في مناطق الحوسا فان المجتمع يتألف من طبقات محددة ويصدق ذلك على قبائل نغواتو وبمبا وبانيانكـول وكيد حيث كان التنظـــيم السياسي محصوراً بهيئة طبقية معينـة سواء كان ذلك في اثناء الاستعمار او قبله. غير ان قبائل لوغولي وتالنسي ونوير من الناحية الأخرى

لم تكن فيها انقسامات طبقية حادة ولا حكومة مركزية .

ولم تكن الممارسة الاستعمارية والذهنيـــة الاستعمارية غائبتين كذلك عن المجتمع الافريقي . ففي المناطق التي تهيمن عليهــــا قبيلة كيد مثلاً تعتبر أدنى الطبقات هي طبقــة السكان الاصليين الذين تعتبرهم القبيلة بدائيين وتكن لهم الازدراء وهم بدون ثقافة على الاطلاق . ولكن فانون لا يبحث اياً من هذه الفروق . بل يشير اليها احياناً بصورة عابرة غير مباشرة كما يفعل حين يشكو من انفجار الروح « العنصرية » في الدول الحديثـــة الاستقلال . وأما فكرته عن « افريقيـــا » وتشكيلاتها الاجتماعية فتبقى تخطيطية . فلديه صورة موحّدة عن القارة وحل موحـــد لمشكلاتها . وهذا الحل مؤلف من عقيدة سليمة ورغبة شرسة لتجنب الحلول الوسط .

ان انفجارات العنصرية يمكن وصفها على نحـو انسب بأنها انفجارات «قبلية» الأمر الذي يثير مشكلة «الامة» الافريقية الجديدة من اساسها . ويصر فانون ، وهو يصف الروح الزنجية او العروبة بأنها تفكير قديم عفا عليه الزمان ، على ان تكون الأمة هي وحدة الانبعاث الخلقي والاجتماعي . « ان الضرورة

الاولى هي اعادة بناء الأمة حتى تبث الحيــاة في الثقافة الوطنية بالمعنى البيولوجي الدقيق لهذه العبارة [٩] » . وهو يكتب عن اخلاص الفلاحين للأمة وعجز البورجوازية الوطنية عن انتهاج سياسة قومية اصيلة . وهو يعرّف الأمة ، في وجه الخصائص القبلية والتعصب الغامض للزنجية أو العربية ، بأنها الوحــــدة العضوية للولاء والتقدم .

ويلاحظ فانون انه حتى في اوروبا فان الدول والشعوب ليست دائماً متطابقة . فالمانيا تتألف اليوم من دولتين وشعب واحد كما تتألف تشيكوسلوفاكيا من شعبين ودولة واحدة . أمــــا دول افريقيا الحديثة فهي في الدرجة الاولى من صنع الاستعمار الاوربي كما ان الحدود التي تفصل بينها انمــا خططت بحكم التسويات التي تمت بين الدول الاستعمارية المختلفة أكثر مما خططت بحكم الاعتبارات العنصرية والعرقية للسكان . فالكاميرون مثلاً مقسمة بنــاء على الفوارق اللغوية (بريطانية وفرنسية) وكذلك الفوارق الدينية . أما نيجيريا فقد خلقت باكثرية من قبائل الحوسا المسلمين في الشمال واكثرية من قبائل اليروبا في الغرب واكثرية من قبائل الايبو في الشرق . وان الحرب الحاليـــة في بيافرا لتتحدث عن نفسها بنفسها . أما « الامة » التي اراد لومومبا ان يصون وحــدتها في

الكونغو فهي من صنع الاوروبيين في حين ان غانا ومالي همـــا اسمان رمزيان يشيران الى امبراطوريتين كانتا قائمتين خلال القرون الوسطى . واذن فان غانا المعاصرة ليست كياناً قومياً طبيعياً . ففي حين ان حدود غانا مع توغولاند تمتد من الشمال الى الجنوب فان الحدود الثقافية بين المنطقتين تمتد من الشرق إلى الغرب الأمر الذي يجعل قبيلة « او » الكبيرة موزعة عبر المناطق الجنوبية من البلدين . وحتى في بقعة صغيرة نسبياً مثل غانا تستخدم لغـات عديدة . وكثيراً ما يتعذر التخاطب الا باللغة الانكليزية بـين فئتين افريقيتين في غانا لا يفصل بينهما أكثر من ٥٠ ميـلا فقط .

ومما يثير الدهشة حقاً ان نجـد فانون الذي اراد ان يحطم الثقافة الاوروبية في افريقيا يريد من ناحية اخرى ان يحول بصورة اعتباطية البناءات الاوروبية في افريقيا الى وحـدات طبيعية تمثل التقدم الافريقي. فمن الواضح ان هذه الدول المنفصلة قائمة بالفعل، وان احلام اقامة اتحاد افريقي فدرالي قد انحسرت متراجعة ومن ثم فمن الصعب ان نجـــد تحمساً محلياً في مفهوم فانون بشأن « اعادة بناء الامـة ... بالمعنى البيولوجي الدقيق للعبارة » .

ان عملية فانون لازالة الاستعمار ليست قوميـــة من حيث الشكل فقط بل هي عنيفة من حيث الموضوع ايضاً. فالاستعمار، في نظره، مرادف للعنف السياسي والعسكري والثقافي والنفساني ومن ثم فلا يمكن ان يقضي عليه الا عنف مماثل ومعاكس في جميع المجالات . وهنالك بحث معقد عما قاله ماركس عن العنف وكيف عزاه الى تحطم الانظمة المختلفة للدولة وما اذا كان تفسير لنين لماركس بهذا الصدد هو ادق مثلاً من تفسير كاوتسكي . فلقد قال ماركس ان العنف هو القابلة التي يضع التاريخ مواليده على يديها، ولكنه حدد هذا التعميم في الستينات والسبعينات من القرن الماضي فيما يتعلق بانظمة الحكم البورجوازية الديمقراطية التي كانت سائدة حينذاك في كل من بريطانيا وهولندا والولايات المتحدة فقال انه في مثل الظروف التي كانت سائدة في الاقطار السابقة الذكر ، يحتمل ان تتمكن طبقة العمال من الاستيلاء على الحكم بدون اللجوء الى العنف . وفي التسعينات ادخل انغلز في هذا الاطار كلا من فرنسا والمانيا ايضاً . أما فانون فلم يشر في الدراسات التي وضعهـا عن العنف الجماعي الى الحجج المختلفة المتوفرة في الحركة الماركسية ، بل كانت الجزائر وافريقيا همـا المصدرين اللذين حـددا نظرته الى العنف مستمداً هذه النظرة

من مشاهداته المباشرة في تلك المناطق . وكانت هذه النظرة تتخذ شكل تحويل قيام الفرد بتحقيق ذاته على نحو انساني ولكن راديكالي (وهي نظرة تعني في الواقع استخدام العنف غير العنيف) الى نظرية منهجيـــة بشأن ضرورة اللجوء الى العنف الثوري الجمـــاعي في العالم الثالث . من ذلك مثلا ان موريس ميرلوبونتي الذي استمع فانون الى محاضراته في جامعة ليون قال منذ عام ١٩٤٧ ان جذور العنف موجودة في الديالكتيك التاريخي وانه لا بد لهـــذا العنف من ان يتناول جميع الفئات المناوئة للثورة. ولما كان العنف جزءاً لا يتجزأ من المجتمع السابق لعهد المجتمع الاشتراكي ، فان المشكلة الوحيدة هنا ، طبقاً لمفاهيم ميرلو بونتي ، هي تحديد الشكل الذي يتخذه العنف الاجتماعي وهو يتجه نحو قمع جميع اشكال العنف . أما سارتر فقد طور هـــذا الخط من المنطق في روايته « الشيطان والسيد الطيب » (١٩٥١) وفي مقالاته الطويلة « الشيوعيون والسلام »(١٩٥٣) وفي مناقشاته لكامو (١٩٥٢) وفي كتابه الاخير « نقد المنطق الديالكتيكي » ولم يكن لكاتب من النفوذ لدى فانون ما كان لسارتر .

يؤمن فانون بان انتصار القوى الثورية في مجابهـة مع القوى

الاستعمارية هو أمر حتمي . وبالتالي فقد اعتبر رأي انغلز بان انتصار العنف يعتمد على انتاج الاسلحة وبالتالي على الطاقة الاقتصادية بصورة عامة رأياً « طفولياً » . ذلك ان فانون يعتقد ان نجاح الثورة المسلحة انما يعتمد على عوامل ثلاثة : (أ) حماسة السكان الاصليين (ب) ان المستعمرات هي الان اسواق تجارية ومن ثم فان نشوب حروب طويلة لا يتفق مع مصالح المؤسسات الاحتكارية (ج) ان الحرب الباردة تزيد من خوف الغرب من ان يتسلل الشيوعيون من خلال الاضطرابات الناشبة في المستعمرات . وليست هنالك دولة استعمارية قادرة على تحمل نفقات قوى الاحتلال الكبيرة في اثناء الفترة الطويلة اللازمة لاخضاع شعب ما . غير انه يمكن الرد على هذا الرأي بانه بحلول عام ١٩٦٤ كانت العصابات الانغولية تجابه ربع مليون نسمة من البرتغاليين المقيمين في المستعمرة والى جانبهم جيش يبلغ تعداده، نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل . واليوم وبعد نحو عشرة اعوام من اندلاع نيران الثورة يبدو ان القبضة البرتغالية لا تزال قوية . وفي كينيا امكن قمع الثورة قبل منح الاستقلال باعوام عديدة . واذن فان الشيء الكثير يعتمد على البنيان السياسي للدولة المستعمرة وعلى تقديراتها المحلية والعالمية . فمجتمع المستوطنين

حين يكون كبيراً ، كما هي الحال في روديسيا ، ينفصل عن الدولة الام « الضعيفة » ويقيم نظامه الشرس الخاص . وتعتبر افريقيا الجنوبية مثالاً تاريخياً لمثل هذه الحالة .

على ان فانون لا يعتبر في عداد المنظرين الكبار في حرب العصابات فهو يقتصر على الاصرار على ان الاضطرابات العفوية ينبغي ان تتحول بسرعة الى تنظيم واستراتيجية منهجيين . ولا بد كذلك من ان تتلاحم في النهاية العصابات المتفرقة ضمن جيش وطني تسيره استراتيجية مركزية . ولم تكن حرب العصابات اثناء حياة فانون قد تطورت تطوراً ناجحاً في المناطق الواقعة جنوب الصحراء الجزائرية . كذلك لم تكن اضطرابات الماوماو في كينيا والحرب الريفية في الكونغو قد تقدمت الى ما هو اعلى من مستوى الاضطرابات القبلية المناوئة للاستعمار . ولقد كانت مذكرات فانون عن الرحلة التي قام بها عام ١٩٦٠ من مالي إلى الصحراء الجزائرية الكبرى مقتضبة ولكنها دقيقة . وافترض فانون انه من الضروري ان تتألف كل وحدة فدائية (كوماندو) ، في أول الأمر ، من عدد من الاعضاء يتراوح بين ٢٠ رجلاً و٢٥ على ان يرتفع عددها شيئاً فشيئاً ليصل إلى ما يتراوح بين ١٠٠ رجل و ١٥٠ كلما ازداد عدد المتطوعين . وقال

فانون ان الغاية الاولية من تشكيل هذه الوحـــدات ليست ضرب العدو بل توعيـــة السكان وايقاظهم من سباتهم واقناعهم ببطلان اسطورة ان العدو قوي واظهار ان جيش التحرير قوي. وعلى كل وحدة فدائية ان تنتظم في صفوفها ثلاثة اعضاء أو اربعة من كل قبيلة تاركة خلفها في اثناء رحلتها بعض اعضائها الاصليين في المراكز التي تمر بها . فمن شأن ذلك ان يؤمن خط مواصلات الوحدة وتوفير عـــدد الادلاء الذين يعرفون المناطق المحلية من الوجهتين الجغرافية والسياسية .

ويرى مـاو ان الحزب الشيوعي هو الذي ينبغي ان يتولى قيادة حملات العصابات بينما يرى فانون وجيفارا ان الحزب الثوري ينبثق من حملات العصابات. والواقع ان جيفارا ودبري يعتبر ان الاحزاب الشيوعية القديمة في امريكا اللاتينية احزاباً تدعو الى الحلول الوسط ومن ثم فهي غير واردة في حروب التحرير الجديدة، أما في افريقيا السوداء فـلا يكاد يكون لهـا وجود . وينظر فانون الى الاحزاب الوطنية التي تتخذ قواعدهـــا في المـــدن بنفس المنظـار السابق . ولكنه يختلف عن جيفـــارا ودبري ، ولا سيا دبري ، اللذين يعتبران ان نواة العصابات الصلبـــة تتكون اول الأمر بمعزل عن الفلاحين

الذين لا ينضوون تحت لواء الصراع الا بعد حين وشيئاً فشيئاً ، وذلك بفضل الدعاية والاعمال العسكرية الناجحة التي هي في الحقيقة احسن وسائل الدعاية . ويوافق فانون على ان التوعية الفكرية للفلاحين امر جوهري، ولكنه يبدو «ماركسياً» من حيث انه ينسب الدافع الثوري الاصلي الى الطبقة الاجتماعية نفسها . وهنا نجد ان جيفارا وديري ، بوصفهما « استراتيجيين » صريحين ، يعلقان اهمية اكبر على نواة القيادتين العسكرية والسياسية وعلى الانضباط الثوري ، في حين ان نظرة فانون تتصف بمزيد من الرومانتيكية ومن ثم نجد ان الوضع الراهن في غينيا البرتغالية حيث يتولى كابرال رئاسة كلتا القيادتين السياسية والعسكرية لحركة التحرر، هو اقرب الى الانسجام مع نموذج جيفارا — ديري .

وتجرنا كلمة « رومانتيكية » هذه الى واحد من أشد جوانب فلسفة فانون مدعاة للنقاش ، ذلك هو ايمانه بضرورة تبني الشعوب المستعمَرة لاسلوب العنف الجماعي . فقد كتب في كتابه « بشرة سوداء واقنعة بيضاء » يقول :

« هنالك منطقة من اللاجود ، منطقة غريبة عميقة وجدباء ،

منحدر عار عراء تاماً يمكن ان يولد فيه اضطراب اصيل. ولكن في معظم الحالات لا تكون لدى الرجل الاسود قدرة على تحويل هذا المنحدر السحيق الى جحيم حقيقي » . ففي حالتـه الخاصة كان العنصر الكابح المثبط للعزيمة هو كما قال هـو نفسه : « انني لا اثق بالحماسة المبالغ فيها . ففي كل مرة انفجرت فيها مثل هذه في مكان ما ، جلبت معها للنـــاس النار والمجاعة والشقاء ... والاحتقار [١٠] » . ولكنه رأى الآن المجاعـة والشقاء في ضوء جديد « فالعنف وحده العنف الذي يلتزم بـه الشعب ، العنف الذي ينظمه ويبثه قادة القائمين به ، هو الذي يجعل في امكان الجماهير ان تفهم الحقائـق الاجتماعية ويعطيها مفتاح تلـــك الحقائق [١١] » . ان العنف على نطـــاق الشعب هو الذي يصهر القبلية والاقليمية ويشد ابناء المجتمع بعضهم الى بعض ملزماً كل فرد بواجبه نحو نفسه ونحو الآخرين . ولقد يكون مما يغري ان نستعيض هنا عن كلمة « عنف » بكلمة « صراع » ولكننا نكون حينذاك قدارتكبنا خطأ كبيراً. ذلك ان الشعب الهندي مثلاً كان يخوض بقيادة غانـدي صراعاً جماعياً ضـد الاستعمار ولكن فانون يرفض تكتيك غاندي ويعتبر صراعه ضد الاستعمار

صراعاً غير أصيل لأنه لا يقترن بالعنف . ولقد كرر سارتر آراء فانون في المقدمة التي وضعها لكتابه « المعذبون في الأرض » فقال « ان المواطن من السكان الأصليين لا يشفي نفسه من العصاب الاستعماري إلا بطرد المستوطن بقوة السلاح .. فعندما ينفجر غضبه يعيد اكتشاف براءته ويصبح قادراً على معرفة نفسه من حيث انه هو الذي يخلق نفسه ... ان اطلاق النار على اوروبي هو بمثابة قتل عصفورين بحجر واحد فهو يعني ان يُقتل في آن معاً رجل ظالم والرجل الخاضع لظلمه (٢) » . فهل يقصد سارتر بذلك تشويه أفكار فانون بوضع ديالكتيك اجتماعي من حيث الجوهر على مستوى ديالكتيك وجودي وفردي ؟ من الواضح ان فانون لم يقصد ذلك لانه هو نفسه ذو آراء جذرية من هذه الزاوية : « فعلى مستوى الافراد يعتبر العنف عاملاً مطهراً . فهو يحرر المواطن من السكان الاصليين مما يعانيه من مركب النقص واليأس والكسل (١١٣) » غير انه من الواضح ايضاً ان اشكال الاستغلال ليست متماثلة وان المواطن المستعمَر هو أشد انسحاقاً من العامل الاوروبي، كما ان خضوعه ليس من الزاويتين الاقتصادية والاجتماعية وحسب بل من الزاوية العنصرية ايضاً .

وكان سارتر نفسه ينتهج مستقلاً ، خطاً موازياً لخط فانون .

فقد كتب قبل ذلك بثمانية أعوام يقول : « ان الطبقات، بصورة عامة، لاتوجد وحدها بل هي تُصنع ». واضاف سارتر يقول ان الاضراب السياسي المقترن بالعنف هو بالنسبة للعامل الكادح طريقة يصبح بها هذا الكادح رجلاً . وفي وسعنا ان نصف هذا المبدأ بأنه علاج وجودي ضمن المفهوم الماركسي للطبقات . ان فانون يرى ان العالم المستعمَر ليس عالماً كئيباً ثقيل الوطأة وحسب بل هو كذلك عالم مغلق ساكن ومشلول ، ومن ثم لابد من تفجيره . أما ماركس وانجلز فلم ينظرا إلى العنف الاجتماعي بهذا المنظار . فعنف العامل ذرائعي وليس وجودياً . وهو عمل بناء وليس ضرورة نفسانية . وكان سيزير قد تحدث عن فانون فقال : « ان عنفه ، بدون مفارقة ، هو عنف رجل غير عنيف، واقصد بذلك انه عنف العدالة وتطهير النفس والعناد [١٤] » . ولا شك ان عبارة « بدون مفارقة » هنا هي مما لا يسهل ابتلاعه وإلا لأمكن كذلك تبرير عقائد العنف لدى الفاشست الجدد من الايطاليين بنفس المنطق . وكان فانون قد كتب الى جومنير يقول « ان العمل يكون تحريضاً وشيئاً غير مترابط إذا لم يعد بناء الوعي لدى الفرد [١٥] » . ولكن هذا ليس سوى لغو لا معنى له .

وكثيراً ما قورنت آراء فانون بشأن العنف بـآراء جورج سوريل في كتابه « اضواء على العنف » (١٩٠٨) فما قاله سوريل: « ان الاشتراكية مدينة للعنف فيما تنطوي عليه من قـيم خلقية رفيعة تكفل انقــاذ العصر الحديث [١٦] » . ولاحظت حنا ارندت ، وهي تلفت الانظار الى ما يدين به سوريـل لهنري بيرغسون ، ان فانون « قد تأثر تأثراً عميقـاً بمعادلة سوريل عن العنف ، الحياة والابداعية ..[١٧] » . ويقول زولبرغ ان فانون يؤمن بأن الطبقة الكادحة الاوروبية تحتاج الى اسطورة . على ان العلاقة بين أفكارفانون وافكارسوريل مشكوك فيها جداً. ففانون لم يشر اليه قط . والواقع ان سوريل الذي غازل الفاشية فيما بعد اصبح من الاسماء ذات السمعة السيئة عند اليســاريين . ففي المقدمة التي وضعها سارتر لكتاب فانون كتب يقول « إذا وضعت جانباً صرخات سوريل الفاشية وجدت ان فانون هو ، منذ عهد انجلز ، أول من وضع العملية التاريخية تحت ضوء الحاضر الجلي [١٨] » . ومهما يكن من أمر فان هذه العبارة ليست بحد ذاتها مقنعة فهي لا تزيد على بيان ان فانون لم يعترف بأنه مدين لسوريل . والحقيقة هي ان نفس التأكيد الصادر عن سارتر بشأن اضراب الطبقة الكادحة والاضراب السياسي المشار اليـه أعلاه

يعبر ، إلى حد كبير ، عن أفكار سوريل .

ولنا أن نترك الآن مشكلة الاقتباس أو الاستيحاء لننتقل الى الجوهر . فهل تعتبر عقيدة فانون عن العنف بصورة أساسية نفس عقيدة سوريل ؟ فإذا كان ذلك صحيحاً ، لا بد لنا حينذاك من ان نتذكر ان نظرية سوريل عن العنف قد نقلته خلال بضعة أعوام من الاعجاب بلينين الى الاعجاب بموسوليني . ان فكرة « الاسطورة » فكرة حاسمة في نظر سوريل الذي كتب يقول : « في وسع المرء أن يحكم على الاساطير كوسيلة للعمل في الوقت الحاضر » ولكن هذا المفهوم « للأسطورة » لم يكن قط مقبولاً لدى فانون . لقد كان سوريل متشائماً ولا يؤمن بالعقلانية . ولم يكن يثق بنظريات التقدم والنجاح الحتمي لثورة الطبقة الكادحة . واذن فان سوريل يعتقد أن الطبقة الكادحة تستطيع أن تؤكد نفسها على نحو عنيف ضمن المجتمع الظالم دون حاجة إلى قلب ذلك المجتمع . فالعنف هنا مجرد انتفاضة جماعية . أما أسس نظرية فانون فمختلفة عن ذلك كل الاختلاف . فثورة الفلاحين في نظره ليست اسطورة انها حقيقة واقعة . وهي ليست مجرد « وسيلة للعمل في الوقت الحاضر » بل هي وسيلة لقلب هذا الحاضر . فالعنف هو انبعاث وتجديد ضمن

مفهوم العمل الاجتماعي الفعّال .

ولعل فيما تقدم من التحدث عن فانون الفاشستي الجديد الأسود ، ما يكفي . على انه لا بد من الاشارة إلى ان رد الفعل لنظريات العنف عند بعض المفكرين الأحرار هو من « العنف » بحيث يثبت انهم عاجزون عن فحص فكرة ما ضمن نظامها العام . وبعبارة أخرى ، وعلى نحو أشد صراحة وتبسيطاً ، فإن هؤلاء المفكرين يقرون ان العنف على صعيد دولي وفي أثناء الحروب يكون أحياناً ضرورياً ، أما استخدام العنف بين الطبقات فهو عمل مؤذ هدام !

على ان الاعتراضات ضد مفهوم فانون للعنف لم تأت بالضرورة من البورجوازيين وحدهم . ذلك ان نغويين نفسه أشار ، في معرض الحديث عن فانون ، الى أن حروب التحرير لا تدوم الى الأبد وان التجارب العنيفة التي يتعرض لها الناس قد تخلق من المشكلات بقدر ما تحل . ولاحظ نغويين انه بعد تسعة أعوام من المقاومة العسكرية لم يجد كثيرون من المقاتلين الفيتناميين ما يفعلونه فعادوا الى الانغماس في تعاطي الافيون . وكان جيفارا نفسه قد اكتشف ان البناء الاجتماعي قد يبدو بطيئاً مملا

اذا قورن بالهدم الاجتماعي .

ليس هنالك رجل واحد أو فلاح واحد يعتبر اجتماعياً خالصاً وعضواً في طبقة أو جنس خاص معيّن فقط . فعندما يقتل أحد خصوم طبقته او احد الظالمين يكون في الوقت نفسه قد قتل انساناً آخر . وكل عملية قتل هي من حيث الجوهر منافية للانسانية . ان الفلاح يربح حربه ولكنه يخسر معركة خاصة . والشيء المثير للعجب هو انه ليس علينا الا ان نعود إلى فانون نفسه لكي نجد البرهان على ذلك . فسجل مرضاه النفسانيين لا يضم الضحايا وحسب بل يشمل مرتكبي العنف أنفسهم ايضاً. فلقد حدث مثلاً ان وضع احد المناضلين الافريقيين قنبلة في مقهى فقتل عشرة أشخاص . ولكن هذا الرجل كان يعاني في نفس الوقت من كل عام قلقاً حاداً ويستولي عليه الأرق وتتملكه الرغبة في الانتحار . وأقدم جزائري ، تعرضت أمه لحادث قتل وحشي متعمد ، على قتل امرأة بيضاء وهي جاثية على ركبتيها تستجدي الرحمة . ونتيجة لذلك أصبح الرجل يعاني من قلق حاد أدى الي نوع من الاضطراب العقلي . وهكذا فإن فهم نظرية فانون في العنف الانبعاثي يصبح أشد صعوبة حتى من خلال التجارب التي مرت بفانون نفسه . ويقال انه في أثناء

الفترة التى قضاها فانون في الدراسة في جامعة ليون كانت يده ترتجف دون ان يتمكن من السيطرة على حركتها ، عندما كان يقوم بتشريح الجثث .

وليس من شك في ان ما شاهده فانون في افريقيا السوداء ، ولا سيما في غانا ، قد أثار سخطه الشديد . وهو يقول انه حيث تمت ازالة الاستعمار على نحو تدريجي تطوري ولم يقترن ذلك بالعنف نسبياً ، سيطر على الشعب المستقل المفكرون الأذكياء الذين يلجأون الى النهب المشروع كعمليات التصدير والاستيراد والصيرفة لخداع شعوبهم . ومهما يبلغ ما في هذا القول من الصدق فلقد كان في وسع فانون ان يميز بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار غير الاستيطاني ، بين تلك المستعمرات التي يقطنها عدد كبير من المستعمرين البيض الذين يملكون فيها الارض ويزرعونها (الجزائر ، كينيا ، روديسيا) وبين المستعمرات الاخرى التي لا تضم عدداً يذكر من المستعمرين المقيمين كما كانت الحال في معظم أجزاء افريقيا الغربية . ففي النوع الثاني من المستعمرات كان الحوار بين البرجوازية الوطنية المحلية والدولة المستعمِرة ممكناً في حين ان المستوطنين الاوروبيين في الجزائر أو كينيا كانوا يتدخلون للحيلولة دون قيام الحوار المطلوب . ولم

يكن فانون يريد من الرجل الابيض ان يمنح الرجل الاسود شيئاً، ولكن من الصعب انتزاع الاستقلال بالقوة حين يُقطع وعد بمنحه في وقت محدد من المستقبل . وقد لاحظ فانون نفسه ان نشوء عنف مناهض للاستعمار هو شيء يتناسب مع مدى القمع الذي يمارسه نظام الحكم القائم. ولكن إذا كان هدف الفلاحين الاول ، كما يقول فانون ، هو الاستيلاء على مزارع المستوطنين الاجانب فما الذي يمكن توقعه حين لايكون هنالك مستوطنون ولا تكون ثمة مزارع للبيض ؟ كيف يمكن في مثل هذه الحالة ان يحال دون قيام حكم بورجوازي غير أصيل في مناهضة الاستعمار ؟

لقد كان فانون يريد ولادة قيصرية . كان يريد لافريقيا ان تمزق العلاقات القائمة بينها وبين اوروبا وان تحطم كذلك القيم والمفاهيم الاوروبية . « عندما أبحث عن الانسان في التكنيك والنموذج الاوروبيين ، لا أعثر إلا على سلسلة من الغاءات الوجود الانساني وفيض من أعمال القتل » . وقال ايضاً ان اوروبا « تولت قيادة العالم بحماسة وأنانية وعنف . . . لقد تخلت اوروبا كلياً عن التواضع ، ورفضت بعناد المحبة والرعاية والاهتمام . . . ولهذا ، دعونا يا اصدقائي نمتنع عن الثناء على النهج الاوروبي

المتمثل بإقامة دول ومؤسسات ومجتمعات تستوحي مثلها من هذا النهج ... إن علينا ان نقلب صفحة جديدة ، وان نبتدع مفاهيم جديدة وان نحاول خلق انسان جديد [١٩] » . وهكذا يكون فانون قد أدار ظهره لاوروبا . ولكن أتراه فعل ذلك حقاً ؟ فلقد كتب سارتر مرة (عام ١٩٤٨) يقول ان الشعر الزنجي نظمه شعراء زنوج ليطالعه قراء زنوج . وها هو الآن يعيد هذا القول موجهاً الحديث الى قرائه الاوروبيين : ان فانون كثيراً ما يتحدث عنكم ولكنه لا يتحدث مطلقاً اليكم ، انكم في نظره مجرد أفاع تسترق السمع الى حديث خاص . وفي كلتا الحالتين يكون إيراد الحقائق مجازاً مضللاً . فقد كان سارتر ، الرجل الفرنسي الأبيض ، هو الذي دُعي لكتابة مقدمة باللغة الفرنسية لكتاب نشر في باريس . ولقد كان فانون هو الذي أرسل مسودة كتاب « المعذبون في الارض » إلى سارتر آملاً ان يكتب له المقدمة كما فعل ذلك من قبل ديوب عندما دعم اطروحته عن تاريخ الثقافة الافريقية بتقديمها الى مجلس من الفاحصين يتألف من عدد من أستذة السوربون . والواقع انه من المؤكد ان فانون كان يخاطب النخبة المثقفة من ابناء العالم الثالث كما انه من المؤكد انه لم يتراجع قط أمام وجهة النظر

« الاوروبية » . ولكن ينبغي ان لا ننسى ان هنالك عدة نماذج لاوروبا : ألم يضع فانون في حسابه اولئك الاوروبيين الذين كما وصفهم هونفسه « يشعرون من وقت الى آخر باشمئزاز شديد »؟ ومع انه ليس في الامكان استخلاص النيات من النتائج إلا انه مما لا جدال فيه ان مؤلفات فانون لقيت من العناية في الغرب منذ وفاته أكثر مما لقيته في العالم الثالث . فقد أُسدل على مؤلفاته في افريقيا السوداء ستار من الصمت والاهمال .

ومن المعروف ان فانون توفي شاباً يافعاً . ولقد أوردت سيمون دي بوفوار آخر ما نطق به في حياته فقالت « استمر الحديث حتى الساعة الثانيـــة صباحاً ، واخيراً قطعته بأشد ما استطيع من التهذيب وذلك بأن اوضحت له ان سارتر بحاجة الى النوم . فاستشاط فانون غضباً وقال ان الثوريين الجزائريين كالكوبيين لا ينامون مطلقاً أكثر من اربع ساعات ليلياً ... والتفت ان لانزمان قائلاً وهو يضحك : انني على استعداد لدفع ٢٠ الف فرنك يومياً لأتمكن من التحدث الى سارتر من الصباح الى المساء مدة اسبوعين . فكل شيء يتحدث عنه يبدو أمام عيوننا وكأنه يحيا من جديد (٢٠) » .

كان داء اللوكيميا الخبيث الذي اصيب به حاداً فانتكس

بعد تحسن . فأضطر الى السفر الى واشنطن للعلاج وهناك ترك وحيداً في حجرته من احد الفنادق طيلة عشرة ايام . وانضم اليه فيما بعد زوجته ونجله الذي كان يبلغ من العمر ستة أعوام فقط. ولقد غير أطباء المستشفى دمه كله . وصدر كتابه « المعذبون في الارض » في باريس . وقرأته عليه لدى صدوره زوجته نفسها . كان فانون لا يثق بالولايات المتحدة التي كان يعتبرها مجتمعاً عنصرياً . وفي آخر صباح شهدته عيناه قال لزوجته حينما أفاق من النوم « لقد وضعوني الليلة الماضية في جهاز الغسيل .. » كان قد أصيب إصابة حادة بذات الرئة .

وفي شهر كانون الاول من عام ١٩٦١ لفظ انفاسه الاخيرة. وقام الجزائريون بنقل جثمانه بالطائرة الى الجزائر حيث ووري التراب في مقبرة تضم رفات شهداء جيش التحرير الجزائري . وكان عمره ستة وثلاثين عاماً ...

٧ ـ فانون منذ كان فانون

كان الفلاح الافريقي ولا يزال غير منفتح على افكار فانون الذي ظل اسمه مجهولاً لديه . أما النخبة الافريقية فإنها تدير له ظهرها . فأفرادها لا يودون ان يسمعوا ما يقـوله . ولكن في غضون ذلك يكتشف المناضلون السود في امريكا ، فانون ...

ان أكثرية الدول الافريقيـة يسودها اليوم حكم الحزب الواحد أو حكم الجيش . ويعقب روجـــر بارتارد على ذلك فيقول : « ومع ذلك فان دولة الحزب الواحد ظلت في جميع مؤلفات فانون افتراضاً لا جدال فيه .. [1] » ويقول إرفنغ هو موافقاً على ذلك « ان فانون يريد اشراك الجماهير ، وعلى الرغم من ذلك تبقى الدولة ذات الحزب الواحد طيلة كتابه ، افتراضاً

لا يرقى اليه الشك » [٢] وهذا ، في رأي هو ، « يعني ان جماهير الشعب تمثل وتبدو كأنها تشارك بالحكم ولكنها لا تشترك في الحقيقة في اتخاذ القرارات » . فما الذي يريد فانون قوله في الواقع ؟ لقد كتب يقول عن الوضع في افريقيا « ان الحزب الواحد هو الشكل العصري لدكتاتورية البرجوازيين دون ستار او دهان أو رتوش ودون ضمير » وأضاف يقول « ان جميع احزاب المعارضة التي هي عادة بالاضافة الى معارضتها تقدمية النزعة وبالتالي فهي ميالة لتحقيق قدر أكبر من نفوذ الجماهير ومشاركتها في الشؤون العامة ، والتي تحب ان ترى الطبقة البرجوازية المتعجرفة العاكفة على تنمية ثروتها جاثية على ركبتيها ، هذه الاحزاب قد زج بها ، بناء على تهم ملفقة ، في السجون واجبرت أول الأمر على التزام الصمت ثم على العمل في نطاق السرية [٣] » .

ان المثل الأعلى الذي ينشده فانون ينطوي على تشكيل حزب واحد ثوري أصيل تكون قاعدته الأساسية من الفلاحين. ولم يكن من دعاة حزب الدولة الواحد كما كان الاتجاه سائراً حينذاك في افريقيا كما لم يكن من دعاة تقديس الزعيم . وكان نكروما الذي يطلق عليه لقب « اوساغيفو » حيناً و «المسيح»

حيناً آخر ، يعتبر فانون « صديقه » . بيـد ان من الواضح أن فانون كان يضع نصب عينيه « اوساغيفو » بالذات عندما وصف زعيم الحزب الافريقي بأنه الرئيس العام لتلك الشركة التي تضم المنتفعين الذين يترقبون جني الأرباح بصبر نافد والتي من البورجوازيين الوطنيين ... ان استقامـة الرئيس التي تعبر عن نزاهته الحقيقية ، تنهار شيئاً فشيئاً » .

ان كتاب سارتر « نقد المنطق الديالكتيكي » يشكل معضلة مثيرة للحيرة . فحسب الفئات الاجتماعية–التاريخية التي ذكرها تعتبر الطبقة الاجتماعية طبقة « جماعية » وليس في وسع هيئـة جماعية ان تحكم « فالجماعة » الموحدة الصغيرة نسبياً هي وحدها التي تستطيـع ان تحكم كاليعقوبيين والبولشفيك والكاستروين في كوبا . ولكن الجماعات تهزم من خلال انتصاراتهـا الخاصة نفسها ، ذلك ان فترة المثاليـة الثورية تتراجع أمام الجمود والانانيـة اللذين تتصف بهما السلطة عادة . ولقـد لاحظ سارتر بعـد الزيارة التي قام بها لكوبا عام ١٩٦٠ ما يلي :

« ان ما يحمي الثورة الكوبية اليوم – وما يحميها وربما لمدة طويلة قادمة – ان الثورة هي التي تهيمن على البلاد » . ومن

الواضح ان هذا هو المثال الذي أراده فانون لافريقيا ولكن مثل هذه الحالات شيء نادر .

اما سنغور فإنه يعتبر المعارضة مرادفة للخيانة وأعمال التخريب فيقول مثلاً : « في هذه القضية يكون أي تساهل بمثابة خيانة للشعب » . ويقول سيكوتوري : « ان الحزب يمثل أفكار شعب غينيا في أعلى مستوياتها وأتم أشكالها » . ويقول نكروما : « الحزب هو الدولة والدولة هي الحزب » . أما جون تتغا السكرتير العام لمؤتمر نقابات العمال فقد قال في اثناء انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٠ : « سنقوم بتحليل أوراق الاقتراع في كل دائرة انتخابية على حدة ، وسنعرف بذلك الأماكن التي رفض سكانها التوجه إلى صناديق الاقتراع للتصويت . ولهؤلاء ان يتأكدوا من اننا سنتخذ الاجراءات الضرورية لمعاقبة من يخون قضيتنا .. » وبعد بضعة أشهر علق فانون على ذلك ، وهو يضع – بلا شك – غانا نصب عينيه فقال : « في هذه الظروف يقترع ٩٩٫٩ ٪ من الناخبين لمصلحة مرشح الحكومة ... أما زعماء الحزب فيتصرفون وكأنهم ضباط جيش .. »[٤] .

وفي كل من الكونغو وداهومي وجمهورية افريقيا الوسطى وفولتا العليا ونيجيريا وغانا وسيراليون ومالي سيطرت على البلاد حكومات منبثقة من انقلابات عسكرية ...

أما في الدول العربية فيصعب علينا احيانا ان نميز بين الحكومة المدنية والحكومة العسكرية . ولكن الحكومة تفعل كل شيء باسم الشعب .

ولقد تكهن فانون بذلك فكتب يقول : انه كلما اشتدت وطأة دكتاتورية الحزب الواحد وكلما ازدادت المعارضة الجماهيرية قوّة ، يصبح الجيش بقيادة مجموعة من الضباط ذوي الروح المتعالية هو الحكَم والفيصل بين الجانبين . وأضاف يقول : ان تاريخ امريكا اللاتينية يعيد نفسه .

والواقع أن ما يلفت الانظار في آراء فانون هو اصراره على الحاجة الى الفصل بين الحكومة والحزب . فالحزب ينبغي ان لا تتوفر فيه فرص للاحتراف ، بل ينبغي ان يكون مجرد وسيلة للتوصل الى معرفة احتياجات الشعب ، وينبغي كذلك ان لا يكون مركزياً حتى يصبح في وسعه استلهام رغبات الناس في

المناطق والأقاليم المحلية . فقد كان فانون لا يثق بالمدن الكبرى والعواصم الزاخرة بالثروة . ففي الاجتماعات التي تعقدها الفروع المحلية وحدها يستطيع الفلاحون أن يشاركوا في تصريف أمور الشعب ، وهنا فقط تلتهب شعلة الشعب الصافية . ومعنى ذلك ان فانون وان لم يكن متحرراً فوضوياً يدعو إلى القضاء على جميع المؤسسات السياسية والادارية على الفور الا انه يشارك الاحرار الفوضويين سوء ظنهم الأساسي فيما يمكن ان تسببه السلطة للناس . وكان يدعو على الدوام الى ان تتحمل القواعد الشعبية مسؤوليات جماعية وان تكون على القمة قيادة جماعية . ولا شك ان الدعوة إلى ذلك قولاً أسهل من تنفيذها بالفعل . فكيف يمكن التوفيق بين التخطيط والديمقراطية ؟

والواقع ان فانون كان من بعض الوجوه « ميلوفان دجيلاس» العالم الثالث . ففي كتابه « المعذبون في الأرض » لاحظ وسجل ما لاحظه وسجله دجيلاس في كتابه « الطبقة الجديدة » – انتقال زمام السلطة الى طبقة حاكمة جديدة تتمتع بنفوذ سياسي أكثر مما هو اقتصادي . وفي افريقيا نجد ان هذه الطبقة متطابقة إلى حد كبير مع الطبقة البورجوازية المستعمرَة ومنبثقة منها . وهذه الطبقة الجديدة تضع ما تسميه تشريعات « اشتراكية » بغية

السيطرة على الاقتصاد الوطني ونهبه . فالفضائح مستشرية والوزراء ينقلبون أثرياء يغمرون زوجاتهم بالزينة والحلي . وقل مثل ذلك باعضاء البرلمان بل بكل مسؤول من القمة حتى الشرطي البسيط أو مأمور الجمرك ، فكلهم يشتركون في موكب الفساد (٥) . ففي داهومي مثلاً كانت مرتبات موظفي الحكومة في أوائل الستينات تغطي ٦٠ ٪ من مجموع ميزانيـــة الدولة . وفي بعض مناطق المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا الغربية يتقاضى أعضاء البرلمان الذين يعملون ثلاثة أشهر فقط في العام الواحد مرتبات سنوية يبلغ معدلها ما يساوي دخل فلاح متوسط من المنطقة خلال ثلاثة وسبعين عاماً .

ومع ان القادة الافريقين أنفسهم كثيراً ما لفتوا الانظار إلى هذه الظاهرة الا ان ذلك لم يجـد نفعاً . وفي نيسان ١٩٦٢ حذّر نيريري من انه من المحتمل ان يحـل محل الاوروبيين والآسيويين الذين يتمتعون بامتيازات خاصـة « طبقة من الافريقيين المتعلمين تتمتع ،بامتيازات دائمة » . وقبل ذلك بعام واحد تحدث نكروما من المذياع وقال للشعب : « انني اعرف ان شرور المحسوبية لها مكان رحب في مجتمعنا » . ونتيجة لذلك طلب من السياسيين الغانيين أن يسلموا ما تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني من

ممتلكاتهم وهو مبلغ يعادل ما قد يدخره الفلاح في غضون ٤٠٠ عام اذا لم ينفق بنساً واحداً من دخله .

وهكذا كان فانون في افريقيـا صوتاً ضائعاً في الصحراء . ولكنه لم يضع في الولايات المتحدة . اذ يقـال ان دان واتس رئيس تحرير مجلة « ليبريشن » قال لأحد الصحافيين في أعقاب الاضطرابات التي نشبت في شيكاغو عام ١٩٦٧ : « فانون ... يحسن بك ان تقتني هذا الكتاب . فكل أخ هنـا يستطيع أن يقتبس شيئـاً من أقوال فانون » . ونحن نجد ليه روى جونز يستشهد بفانون كما نجد ستوكلي كارمايكل يقول إنه يعتبرفانون من القديسين . ويركز كارمايكل بنوع خاص على تنديد فانون بالقيم الخلقية الغربية ودعوته إلى خلق انسان جديد وإلى تضامن الأمريكيين السود مع شعوب العالم بأنه « لعبة لون البشرة » . ولكن الحقيقة ان فانون لم يقصد إلى ذلك ، وان كان من الممكن ان يتحول الامر على هـذا النحو . اذ من المحتم أن ينشأ تعاطف بين أولئك الذين عانوا من عجرفـة الجنس الابيض وظلمه . ولكننا اذا التفتنا إلى الحالة الاجتماعية على نحو موضوعي نجد ان كار مايكل يسيء عرض أفكار فانون عنـدما يقول : « ان الطبقة العاملة الامريكية تتمتع بجني ثمار أتعاب عمال العالم الثالث .

وبذلك يكون العالم الثالث قد أصبح هو الطبقة الكادحة كما أصبح المجتمع الغربي الأبيض هو الطبقة البورجوازية»[٦] . بيد ان فانون لم يقصد ذلك . فإذا صح ان العمال البيض في الولايات المتحدة يتمتعون بثمار الآخرين فإن العمال السود يفعلون ذلك أيضاً لان كلا الفريقين يعمل ضمن نفس النظام الاقتصادي للاستعمار الجديد وان كان السود يفعلون ذلك على مستوى أدنى . بل انه وصف الطبقة العاملة الافريقية بأنها «طبقة البورجوازيين» بالنسبة للفلاحين ، مع انها هي نفسها ، كما قال ، تتمتع بمستوى معيشة أدنى مما تتمتع به الطبقة المقابلة من الزنوج الامريكيين . أما فانون فيقول : «ان زنوج شيكاغو وحدهم لا يشبهون النيجريين أو التنزانيين الا من حيث انهم جميعاً يُعرفون بالنسبة إلى البيض»[٧] . ولقد عرف فانون الظلم العنصري فيما بعد ، تعريفاً ضرورياً لحالة المستعمَرين ولكنه غير كاف .

وألمح في إحدى كتاباته الى حق الزنوج الامريكيين باللجوء الى العنف المسلح ، وليس هنالك مايدعو الى الاعتقاد بانه كان سيعارض استخدام هذا العنف . بل على النقيض من ذلك كان فانون يؤمن بحق المضطهدين في ان يلجأوا الى العنف الاجتماعي والعنصري . ولقد قال في الواقع عام ١٩٦٠ إن اللجوء الى ذلك قد يكون

ضروريا – ومرة أخرى كانت حالة السود الامريكيين في نظر فانون تختلف عن حالة السود الافريقيين ، فقد قال « ان مشكلة الحقوق المدنية التي يتصارع خلالها كل من البيض والسود في امريكا صراعاً يتناول التفرقة العنصرية هي مشكلة ذات صلة ضئيلة بالمبادىء والاهداف التي يحارب من أجلها شعب انغولا حربه البطولية ضد الاستعمار البرتغالي البغيض [٨] » . وبعبارة اخرى لم يكن فانون يتكهن بقيام روح نضالية انفصالية لدى زنوج الولايات المتحدة . فقد كان الانطباع الذي تركه في نفسه الكتاب الأمريكيون السود الذين اجتمع بهم في مؤتمر باريس المعقود عام ١٩٥٦ يدل على ان المواقف التي يتخذونها والمشكلات التي يواجهونها والمطامح التي يحلمون بها تختلف كل الاختلاف عما يقابلها لدى السود المستعمَرين في افريقيا . واشار في كتابه « البشرة السوداء والأقنعة البيضاء » بعبارات غامضة ، الى الساحة الامريكية للمعركة العنصرية ولكنه تكهن بقيام نصب تذكاري بارز من خلال تلك التربة الدموية « وعلى قمة ذلك النصب ، استطيع ان أشاهد رجلا ابيض وآخر أسود يضع كل منهما يده في يد الآخر [٩] » . ترى ! لو قدر له ان يمتد به العمر مدة أطول أكان يتخلى عن الحلم كليا ؟ لقد وضع الدريدج كليفر ، وهو من

مناضلي القوة السوداء ومن المعجبين بمالكولم إكس ، كتاباً أسماه « الروح فوق الجليد » ردد فيه بقوة أصداء نضال فانون المبكر في سبيل اكتشاف هوية نفسه وتحقيق ذاته ضمن مجتمع حضاري ابيض . ان اعتراف كليفر « بأن في الولايات المتحدة اليوم جيلاً من الشباب البيض الجدير باحترام الرجل الأسود . . » وصحة هذا القول ، ربما شكل فرصة لتحقيق موقت لحلم فانون بإقامة مجتمع ذي عنصرين يضع الواحد منهما « يده في يد الآخر » .

ومن الطبيعي ان الكتاب يكتب ثم يقرأ ، وحتى حين لا يقرأ بدقة متناهية فإن رسالته تتكون، الى حد ما، من الافكار التي يحملها القاريء عن ذلك الكتاب . وهكذا ، عندما نجد كارمايكل وتشارلز في هاملتون يدعوان نفسيهما « بالامريكيين الافريقيين » ويشيران الى « تراثهما الثقافي الافريقي » ، قد يصبح من غير الوارد ان يكون فانون قد اعتبر « الزنجية » تقديساً مرحلياً مصيره الزوال . فليس هنالك أية علامة أو أثر لوجود أي « تراث ثقافي افريقي » في كتابات فانون نفسه . ولكن الدور الموضوعي الذي تلعبه اسطورة لون البشرة يختلف باختلاف الحالة وطبقاً للتركيب العقائدي العام الذي يمثل لون البشرة عنصراً من عناصره . فالاشتراكيون الامريكيون السود مثل

كارمايكل يستخدمونه لتطوير التقاليد الخلاقة التي أسسها و.ي دبويس في حين ان رجلاً سياسياً متطرفاً مثل مالكولم اكس يستخدمه ، وقد استخدمه بالفعل ، على نحو يقوده الى سراب .

ومع ان مالكوم إكس هو ، دون شك ، شخصية لامعة ومناضل كرس نفسه باخلاص لقضية الزنوج إلا ان ما سجله عن رحلته الى مكة والشرق الاوسط وافريقيا عام ١٩٦٤ جدير بأن يثير ذعر فانون . فقد اكتشف مالكولم اقطاراً ومجتمعات حضارية يتعايش فيها الرجل الابيض مع الاسود دون أي تمييز ويتمتع فيها كل من الجانبين بكرامته وينعم فيها الملونون بالسيطرة على بلادهم . ولكن التركيز الكلي على لون البشرة والعنصر حمل الناطق بلسان زنوج حي هارلم على ان يعبر عن امتنانه العميق للاستقبال الفخم والاحتفاء اللذين لقيهما من الامير فيصل و كوامي نكروما أي اولئك الذين يمثلون نوع الطبقة الحاكمة التي كان فانون يكن لها أشد الكراهية . أما مالكولم اكس فلم يخطر بباله ان يلتفت ، وهو يقطع الطريق من المطار الى القصر الذي يذهب اليه ثم من القصر الى المطار ، الى المنظر المزري للفلاحين الذين يجوبون الطرق لبيع منتجاتهم بأبخس الأثمان .

ذلك ان فانون كان اشتراكياً وبالتالي عـــدواً للرأسمالية والاستعمارين القديم والجديد معاً . وكان رجلاً ثورياً مناهضاً للتمييز العنصري يؤمن بالحق في استخدام العنف لتحقيق الذات وبجدوى ذلك وانسجامه مع المثل الانسانية . وكان الى ذلك كله مناهضاً لحكم النخبة والاقلية التي تنعم بالامتيازات الخاصة بصرف النظر عن التسمية التي تطلق عليها، ثم هو بطل الدفاع عن أفقر فئات سكان الكرة الارضية أي فلاحي العالم الثالث . ان فانون لم يكن عنصرياً . ومع ان التجارب التي مرت به والألم والذل اللذين تعرضت لهما حياته الخاصة، كل ذلك يتناول، دون شك ، الشعوب السوداء وحدها ، إلا ان فلسفته الاجتماعيـــة تتناول الشعوب السوداء والبيضاء على السواء . لقد ندد بتاريخ اوروبا وقيَمها الخلقية ومثلها العليا خلال عهد الاستعمار الرأسمالي ولكنه فعل ذلك في ضوء المفاهيم الثورية الاوروبية نفسها . فليس في افكاره انفصال تام عن التطور العقائدي الاوروبي . فلكل حركة جديدة جذورها الممتدة من التراث القديم . ولقد اضاف فانون الى التراث القديم وأغناه .

المراجع

الفصل الأول : بشرة سوداء وأقنعة بيضاء .

١ – فانون ، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، ص ١١٦ .
٢ – المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
٣ – أنظر و. هـ. غرير و ب. م. كوبس ، الغضبة السوداء ، نيويورك ، ١٩٦٨ .
٤ – فانون ، « مواطنو جزر الانتيل والافريقيون » من كتاب « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٢٧ .
٥ – ج بلدوين « الحريق في المرة القادمة » ، لندن – ١٩٦٥ ، ص ١٦ .
٦ – « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » . ص ١٢ – ص ٢٢٧ .
٧ – و. مانوني ، بروسبيرو ، كاليبان – « سيكولوجيا الاستعمار » ترجمة ب. بوسلاند ، لندن ١٩٥٦ .
٨ – المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
٩ – م. فورتس و ى . ايفانز – برتشارد ، الأنظمة السياسية الافريقية ، لندن ، اوكسفورد ، ١٩٦٦ .

١٠ – بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، ص٢٢٤ .
١١ – المصدر نفسه ، ص ١٤ .

الفصل الثاني : الروح الزنجية – السراب الأسود .

١ – مقتطفات من الشعر الزنجي الحديث بلغة الملاغاشي ، باريس المطابع الجامعية الفرنسية ، ١٩٤٨ .
٢ – ج جاهن « تاريخ الأدب الفريقي الجديد » ترجمة او . كوبورن و يو . لهر برغر ، لندن ، فابر ، ١٩٦٨ .
٣ – أ سيزير ، مذكرات الحنين للعودة إلى أرض الوطن ، ١٩٥٦ .
٤ – بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ١٢٥ .
٥ – المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
٦ – « « ، ص ١٣٣ – ١٣٤ .
٧ – ر. رايت « المواطن من السكان الاصليين » ، نيويورك ، ١٩٦٤ .
٨ – بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ٢٠٣ .
٩ – ج. بلدوين « الأمراء والدول » من كتاب « لا أحد يعرف اسمي » لندن ، ١٩٦١ .
١٠ – فانون ، « المعذبون في الارض » ص ١٨٨ .

الفصل الثالث : فلسفة جديدة تتحفز .

١ – بشرة سوداء وأقنعة بيضاء – ص ٨٨ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٤ .
٣ – ر. د. لينغ « سياسات الخبرة » ، لندن – ١٩٦٧ .
٤ – المعذبون في الأرض ص ٣٨ .
٥ – ديالكتيك التحرير (د. كوبر) ، لندن – ١٩٦٨ –ص.١٥٠.
٦ – بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ٨١ .
٧ – فانون – « في سبيل الثورة الافريقية » .

الفصل الرابع : الجزائر .

١ – المعذبون في الأرض – ص ٢٥٢ .
٢ – المصدر نفسه .
٣ – غانغرين ، كتب المقدمة ب . بنسون ، لندن –١٩٥٩ .
٤ – « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٩٠ وص ٧٨ .
٥ – فانون « دراسات لاستعمار في طريق الانهيار»ص ١٤٩ .
٦ – س. دي بوفوار ، « قوة الظروف » ص ٥٩٦ .
٧ – دراسات لاستعمار في طريق الانهيار ، ص ١١٤ .
٨ – س. رودى « التحرير والعنف في الجزائر » من كتابه

دراسات لليسار » ، ١٩٦٦ ، ص ٨٦ .

٩ — أ . جيللي ، مقدمة لكتاب «دراسات لاستعمار في طريق الانهيار» ص ٩ .

الفصل الخامس : جزر الانتيل وافريقيا والعالم الثالث .

١ — دي بوفوار المرجع السابق ص ٥٩٥ .

٢ — A. Malraux, Anhimémoires, Paris, Gallim - ard, 1967, P. 166.

٣ — المصدر نفسه ص ١٦٨ .

٤ — المعذبون في الارض ص ٧٦ .

٥ — ب. لومومبا. « بلدي ، الكونغو » ترجمة ج . هيث ، لندن ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢ .

٦ — سي. كروز اوبريين « الى كاتنغا ثم العودة منها » لندن ، هتشنسون ، ١٩٦٢ .

٧ — « الوجود الافريقي » ١٩٦٢ ، ص ١٢٦ .

٨ — « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٢٠٦ .

٩ — « الوجود الافريقي » ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٧ .

١٠ — ف. استامبولي « فرانز فانون » — مراجعة معهد العلوم

الاجتماعية – رقم ٢ / ٣ ، ١٩٦٧ ، ص ٥٣٣ .

الفصل السادس : حول الثورة والعنف .

١ – م . بابلو « المدانون باللعنة في الحياة الدنيا »، ١٩٦٢ ، ص ٦٢
٢ – ن. نغي ، « فرانز فانون » ، الفكرة ، ١٩٦٣ – ص ٢٩
٣ – راجع و . فريد لاند وسي . روزنبرغ « الاشتراكيـــة الافريقية » ١٩٦٤ ، ص ١٠٤ .
٤ – المعذبون في الارض ص ١٠١ .
٥ – المصدر نفسه ص ١٠٣ .
٦ – أ . زولبرغ « فرانز فانون » ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦ .
٧ – ف . غوتيل « فانون واقتصاديات الاستعمار » ص ٧٤ .
٨ – المعذبون في الارض . ص ١١٧ .
٩ – المصدر نفسه . ص ١٩٧ .
١٠ – بشرة سوداء واقنعة بيضاء . ص ١٠ وص ١١ .
١١ – المعذبون في الارض – ص ١١٨ .
١٢ – ج.ب . سارتر – مقدمة كتاب « المعذبون في الارض » ص ١٨ وص ١٩ .
١٣ – المعذبون في ألارض – ص ٧٤ .

١٤ – الوجود الافريقي – ١٩٦٢ ، ص ١١٩ .
١٥ – المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .
١٦ – ج . سوريل ، « انعكاسات على العنف » ، باريس ، م . ريفيير ١٩٥٠ ، ص ٣٨٩ .
١٧ – ه . ارندت « انعكاسات على العنف » ١٩٦٩ ، ص ٢٩ .
١٨ – سارتر – المرجع السابق ، ص ١٢ وص ١٣ .
١٩ – المعذبون في الارض ، ص ٢٥٢ و ٢٥١ و ٢٥٤ و ٢٥٥ .
٢٠ – دي بوفوار ، المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

الفصل السابع : « فانون منذ كان فانون .

١ – ر. بارنارد فرانز فانون » ، ١٩٦٨ ، ص ١٢
٢ – ي. هو. العمل الدائب ، ١٩٦٦ ، ص ٧٧ .
٣ – المعذبون في الارض ص ١٣٢ – ص ١٤٧ .
٤ – المصدر نفسه ١٤٦ – ١٤٧ .
٥ – المصدر نفسه ص ١٣٨ .
٦ – ديالكتيك التحرر ص ١٦٥ .
٧ – المعذبون في الارض ص ١٧٣ – ١٣٤ .
٨ – المصدر نفسه – ص ١٣٤ .
٩ – بشرة سوداء واقنعة بيضاء – ص ٢٢٢ .

نبذة عن حياة فانون

١٩٢٥ ولد في جزر الأنتيل الفرنسية .
تابع دراسته فيما بعد في جزر المارتنيك وفرنسا .

١٩٤٤ تطوع في الجيش الفرنسي وخدم في أوروبا .
بعد انتهاء الحرب ، درس الطب وعلم النفس في جامعة ليون .
تولى رئاسة تحرير صحيفة توم – توم التي توزع على الزنوج من الطلبة .

١٩٥١ ظفر بشهادته العلمية في الطب .

١٩٥٢ أصدر كتابه « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » ، في باريس .

١٩٥٣ تزوج .
وقع عليه الاختيار ليشغل مركز رئيس دائرة الطب النفساني في مستشفى بليدا – جوينفيل بالجزائر.

١٩٥٤ اندلعت نيران الثورة الجزائرية .

١٩٥٤ – ٥٦ كان يعمل على تقديم العون للثوار الجزائريين.

١٩٥٦ استقال من العمل في مستشفى بليدا – جوينفيل .
حضر اول مؤتمر للكتاب والفنانين السود في باريس .
تولى الاشتراك في تحرير صحيفة المجاهد الناطقة بلسان جبهة التحرير الجزائرية والتي كانت تصدر حينذاك في تونس .

١٩٧٥ – ٥٨ حضر المؤتمر الافريقي في باماكو وكوتونو .

١٩٥٩ اصيب بجروح بالغة لدى انفجار لغم على الحدود الجزائرية المغربية.
اصدر كتاب « السنة الخامسة من الثورة الجزائرية » باريس .

١٩٦٠ اختير سفيراً للحكومة الجزائرية الموقتة في غانا .
سافر في رحلة الى مالي ليستطلع امكانات فتح طريق جنوبية لتموين الثوار في الجزائر . ونجا من محاولة فرنسية لاختطافه . اصيب بداء اللوكيميا ثم توجه الى الاتحاد السوفييتي للعلاج .

١٩٦١ اصدر كتاب « المعذبون في الارض » ، باريس (كانون الاول) .
توفي في المستشفى في واشنطن ثم دفن في الجزائر .

١٩٦٢ استقلال الجزائر .

١٩٦٤ نُشر كتابه « في سبيل الثورة الافريقية » – باريس .

محتويات الكتاب

طبع في
دار غندور
للطباعة والنشر والتوزيع



سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر

يمتاز عصرنا الحاضر بالانفتاح الفكري والتفاعل الثقافي لا على الصعيد الاقليمي او القومي وحسب بل وعلى الصعيد العالمي أيضاً. ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام الواعي الجاد بما يطرأ من تطورات فكرية وما يستجد من نظريات وتيارات، أي ضرورة الاطلاع على آراء تلك الشخصيات التي تمارس تأثيراً سياسياً وفكرياً رئيسياً في عالمنا المعاصر. وقد توخينا من نشر سلسلة اعـلام الفكر العالمي ان نقدم للقارىء العربي اهم ما كتب في اللغات الاجنبيةعن مفكرين طالما اراد القارىء المثقف مطالعة مجمل نظراتهم وافكارهم على شكل دراسة جامعة موجزة مترجمة بدقة وبدون تعقيد. وسوف تشمل هذه السلسلة دراسات عن فانون وماركوز وجيفارا وغيرهم من ابرز مفكري العصر.

نبدأ هذه السلسلة بفرانز فانون الطبيب النفسي المارتينيكي الذي انضم الى الثورة الجزائرية وقضى وهو يعمل في صفوفها، والذي يعتبر من ابرز من تحدث باسم العالم الثالث ومن اعمق من تحـدث عنه. وفي هذا الكتاب يعرض دافيـد كوت آ بفهم عميق ونفاذ نادر.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت